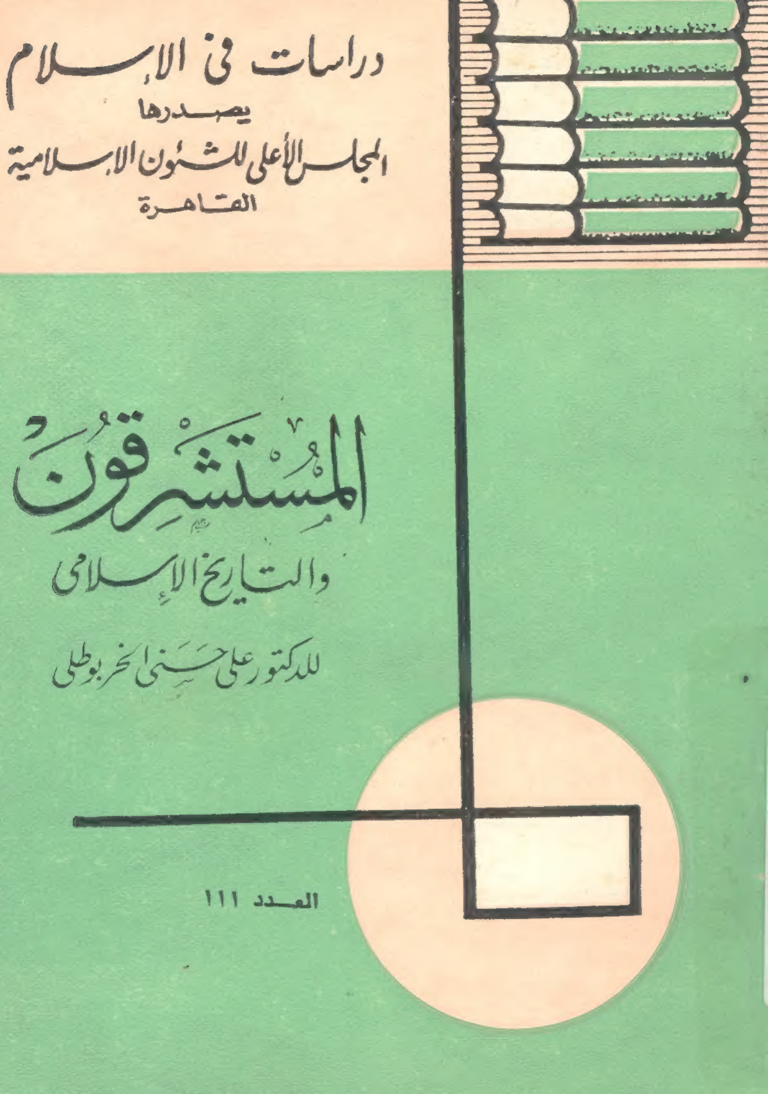

دراسات فى الاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
القاهرة
المستشرقون
والتاريخ الإسلامي
للدكتور علي حسني الخربوطلي
العدد ١١١

دراسات فى الإسلام

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

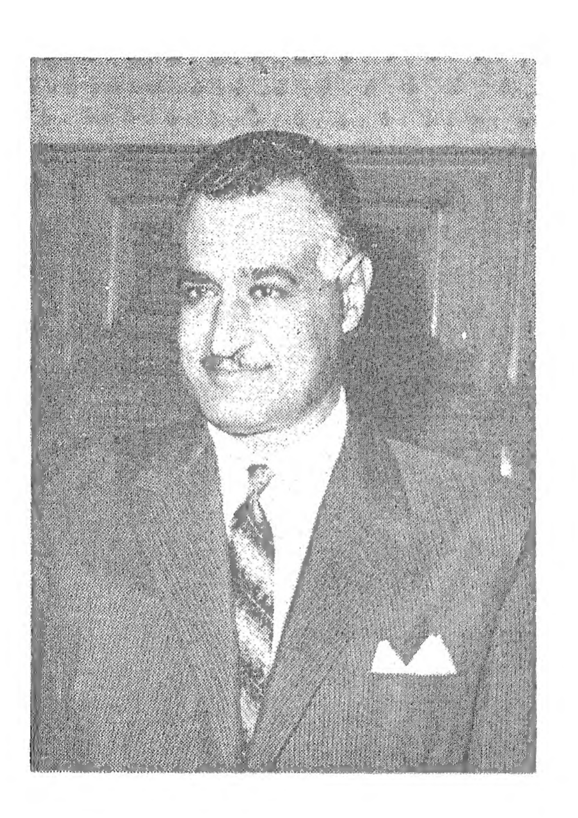
القاهرة

المستشرقون والتاريخ الإسلامى

للدكتور على حسنى الخربوطلى

يشرف على إصدارها

محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

« فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

قرآن كريم

مقـــــــــدمة

حركة الاستشراق ، حركة علمية قديمة يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة ، ولا تزال قائمة حتى اليوم • وهى حركة واسعة النطاق ، متعددة الجوانب ، متشابكة الأطراف • وقد تناول المستشرقون جميع الدراسات الشرقية بصفة عامـة ، والدراسات العربية الاسلامية بصفة خاصة • ورغم كثرة عدد المستشرقين ، وتعدد جهودهم العلمية ، ونشرهم العديد من الأبحاث ، ورغم أثر الاستشراق فى الفكر العربى ، فان الكتب العربية التى تدرس حركة الاستشراق وجهود المستشرقين ، لا زالت قليلة الى حد كبير • اذ تتصف دراسة هذا الموضوع الحيوى بالصعوبة والتعقيد والتشابك •

واتجهت الكتب القليلة التى تناولت الاستشراق والمستشرقين اتجاهين متميزين : فبعض هذه الكتب تعدد آراء المستشرقين التى أساءت الى الاسلام وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والحضارة الاسلامية ، ثم تقوم بتفنيد هذه الآراء ، ثم بالتعبير

عن وجهة النظر الاسلامية • وأبرز هـذا النوع من الكتب ، كتاب (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وكتاب (الاسلام والانصاف والجحود) للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وكتاب (الاسلاموالمستشرقون) للأستاذ زكريا هاشم زكريا •

أما النوع الثـانى من هذه الكتب ، فهى تعدد لنا أسـماء المستشرقين وتذكر مؤلفـاتهم وأبحاثهم فى جميـع المجالات الانسانية والعلمية ، من أدب وفلسفة وتاريخ وآثار وطب وهندسة ، وغير ذلك من فروع المعرفة ، كما تذكر الجامعات التى تهتم بالاستشراق وتعدد كراسى الأستاذية • ومن أبرز هذا النوع من الكتب ، كتاب (المستشرقون) للأستاذ نجيب العقيقى ، وكتاب (الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمـانية) للمستشرق الالمـانى المعاصر (بارت) ، وكتاب (علماء المشرقيات فى انجلترا) للدكتور اسحق موسى الحسينى •

وكتابنا هذا يختلف فى موضوعه وتخصصه واهتماماته تماما عن الكتب السابق الاشارة اليها ، وهى كتب ذات قيمة علمية كبيرة وتستحق التقدير • فقد آثرنا أن نركز الدراسة فى جانب واحـد من الاستشراق ، ونتعمق فى دراسته ، ونلم بجميع أطرافه ، وهو الاستشراق فى مجالات التاريخ الاسلامى ، وهى المـادة التى تخصصـنا فيها ووهبناها حياتنـا وجهـودنا

واهتمامنا • ولذا نستطيع أن نقول ــ باطمئنان ــ أن كتابنا هذا هو الوحيد الذى يختص بدراسة هذا الموضوع الحيوى الهام على أساس علمى منهجى •

وقد بدأنا دراستنا الجديدة هذه بتجديد لمفهوم الشرق ، فقد تغير مفهــومه الجغرافى والحضارى على مر العصــور التاريخية ، كما قمنا بتعريف (المستشرق) تعريفا متميزا ، وذكرنا الشروط الواجب توافــرها فيمن يشارك فى حــركة الاستشراق •

وفى الفصل الثانى ، تتبعنا مراحل الاستشراق فى التاريخ الاسلامى عبر عصور التاريخ المختلفة ووصلنا الى نتائج جديدة فى تحديد نقطة بداية وانطلاق الاستشراق ، ثم درسنا صور الاستشراق المختلفة فى العصور الوسطى ، حتى وصلنا الى الاستشراق فى بداية العصور الحديثة ، ودرسنا الاستشراق فى العــالم العربى والاسلامى فى العصر العثمــانى ، ثم فى التاريخين الحديث والمعاصر ، وتحدثنا عن المستقبل الذى ينتظر حركة الاستشراق •

وفى الفصل الثالث ، تحدثنا باسهاب عن دوافع الاستشراق ، وركزناها فى ثلاثة دوافع : دينية ، واســتعمارية ، وعلمية • ودرسنا عوامل اختلاف هذه الدوافع ، والظروف المحيطة بها ، وعقدنا مقارنة بينها ، وأشرنا الى موقف العرب والمسلمين من

الاستشراق بصوره المختلفة ، كما تحدثنا عن أبرز المستشرقين فى كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة .

وقمنا فى الفصل الرابع بتصنيف للمستشرقين ، فليس كل المستشرقين سواء فى أهدافهم واتجاهاتهم ، وميولهم . فوجدنا فئة من المستشرقين أنصفت الاسلام والرسول والتاريخ العربى والاسلامى ، وقدمت لنا أبحاثا ذات قيمة علمية كبرى ورأينا فئة ثانية ، تعمدت الاساءة الى تاريخنا وحضارتنا ، وان كانت قد قدمت — فى نفس الوقت — الى مكتبتنا العربية أبحاثا هامة . أما الفئة الثالثة من المستشرقين فقد وقعت فى الزلل والخطأ أيضا ، ولكن بدون قصد او عمد ، نتيجة جهل أو سوء فهم أو قصور فى الدراسة . وقد فلسفنا اتجاهات هذه الفئات الثلاث ، وأشرنا الى أمثلة عديدة ، تصور جميع الاتجاهات .

وفى الفصل الخامس ، والأخير قمنا بتقييم لجهود المستشرقين فى دراسة التاريخ الاسلامى ، فتحدثنا عن المزايا والصفات التى اتصف بها المستشرقون وميزت أبحاثهم . ثم درسنا جهود المستشرقين فى الاهتمام بالتراث الاسلامى والعربى ، ثم تحدثنا عن اهتمامات المستشرقين فى انشاء المطابع واصدار المجلات العلمية وعقد المؤتمرات . ثم خصصنا الحديث عن دائرة المعارف الاسلامية . وفى الختام تساءلنا عن موقف الباحثين العرب فى المستقبل من أبحاث المستشرقين ومدى استفادتهم منها .

هـذا وقد لاحظنـا أن الـكتب التى تنـاولت الاشراق والمستشرقين ، تأرجحت بين موقفين متناقضين ، فبعض هذه الكتب تحاملت على أبحـاث المستشرقين تحاملا شـديدا ، واعتبرتهم رسلا للاستعمار وصورا للغزو الاستعمارى الفكرى والحضارى ، كما اعتبرت المستشرقين جميعا أعداء للاسلام والحضارة العربية • ثم نجد كتبا أخرى تحمست للاستشراق ، وغالت فى مدح المستشرقين ووضعتهم فوق قمة الفكر العربى وجعلتهم مبعوثى العناية الالهية للاهتمام بتراثنـا العـربى والاسـلامى •

ولكننا آثرنا ــ فى كتابنا هذا ــ انتهاج سياسة الحياد الايجابى العلمى ، فأعطينا ما لقيصر الى قيصر ، وما لله الى الله • وكان هدفنا دائما مد القارىء العربى بصورة علمية دقيقة واقعية عن المستشرقين فى التـاريخ الاسلامى ، وعن جهـودهم ، ودوافعهم ، واتجاهاتهم ، وقيمة أبحاثهم ، والنتائج التى وصلوا اليها •كما اهتممنا بدراسة مستقبل الاستشراق فى مجالات التاريخ الاسلامى •

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى هذه الدراسة الجديدة ، وأرجو أن تكون فاتحة للمزيد من الدراسات العلمية فى تاريخ الاستشراق ، والله عز وجل ولى التوفيق •

المؤلف

الفصل الأول
تعريف بالمستشرق

ظهرت كتب قليلة تتحدث عن المستشرقين ، وتبرز جهودهم فى مجالات الدراسات الاسلامية والعربية . ولكن هذه الكتب رغم قيمتها العلمية ، ورغم تعدد جوانب دراستها ، الا أنها لا تقدم للقارىء تعريفا ثابتا محددا للمستشرق ، فيظل بذلك الفراغ قائما ، وفى حاجة الى المزيد من الجهد لنصل الى التعريف بالمستشرق ، وهذا الفصل يسلط الأضواء على الاستشراق ، ويجلو الحقيقة التى لا زالت غامضة غير محددة .

مفهوم كلمة شرق :

عرف المفكر الألمـــانى المعاصر (رودى بارت)[1] الاستشراق فقال : « كلمة استشراق مشتقة من كلمة (شرق) ، وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق ، أو علم العالم الشرقى » . ولكن (بارت) بعد ذلك

---

(۱) بارت : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية (ترجمة الدكتور مصطفى ماهـر) ص ۱۱ (طبعـــة دار الكتاب العـــربى) .

يجد نفسه فى حيرة ، فيتساءل : ما معنى كلمة (شرق) ؟ !
فان مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعا لاختلاف المكان ، وتبعـا لتغير الأزمان • فالشرق يختلف بالنسبة لليـابانى أو العربى أو الألمـانى أو الانجلـيزى أو الامريكى • والشرق يختلف بالنسبة لأهالى العصور القديمة والوسطى أو للبشر فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، وخاصة بعد اكتشاف الامريكتين • فقد كان البحر المتوسط فى العصور الوسطى هو مركز الحياة فى العالم ، وكان هـذا المركز هو الذى يحـدد مفهوم كلمتى (شرق) و (غرب) ، ثم انتقل مركز الأحداث بعد نهاية هذه العصور الوسيطة الى شمالى غربى أوروبا ، ثم اتسعت حدود العـالم بعد قيام حضارات كثيرة راقية فى القارتين الأمريكتين ، وأدى هذا الاتساع الجغراف والحضارى الى تغير مضمون ومفهوم (الشرق) •

ولذا فتحديد أبعاد (الشرق) لا يزال غامضا وغير ثابت أو محدد • ولنا أن نتساءل هل نقصد بكلمة (الشرق) مفهوما جغرافيا ، أم حضاريا ، أى هل هناك حدود جغرافية واضحة ثابتة يمكن أن تضم أطراف الشرق ، أم أن كلمة (شرق) انما تعبر عن صورة حضارية وأسلوب حياة له مميزاته وخصائصه التى تميزه عن غيره ؟

لقد رأى كثير من المفكرين أن البيئة الطبيعية والأحــوال الجغرافية تؤثر فى حيــاة الأمم وطبائعها ، حتى أن البعض ذهب الى أن (الأمة) وليدة البيئة الجغرافية • ومن هؤلاء المفكرين (مونتسكيو) فى كتابه (روح القوانين) ، فقد ذهب الى أن البيئة تؤثر فى أخلاق الأمة وسجاياها تأثيرا كبيرا ، وحاول أن يعلل قيام النظم الديموقراطية أو النظم الاستبدادية بالأحــوال الطبيعية • ولــكن فات (مونتسكيو) ان البيئة الجغرافية تمطى امكانيات عديدة ، ولكنها لا تحتم أمرا من الأمور ، وأن مبلغ اســتفادة الشعوب من هذه الامكانيات يختلف باختــلاف أدوار التــاريخ ومســتوى الحضــارة وخصائصها[1] •

وقد حاول البعض أن يوجدوا روابط سياســية وحضارية مستندة الى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر المتوسط • ولكننا لا يمكننا أن نخضع مثل هذه الروابط لوحدة جغرافية أو اقليمية • ان (الرابطة الشرقية) ظهرت فى يوم من الأيام ، حينما أصبح الشرق معرضا لاطماع الدول الاستعمارية الغربية ، ورأى أبناء الشرق أن يتكتفوا ويتقاربوا لمواجهة هذه الأطماع السياسية • كما أن الشرقيين أدركوا

---

(١) أنظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص ٧٤ (طبعة الحلبى سنة ١٩٥٩) •

أيضا أنهم أهل الحضارة القديمة ، وان بلادهم كانت قلب العالم القديم ، وأن بينهم نزلت الأديان السماوية ، ولكن لمعان الشرق القديم قد انطفأ ، وخبت أنوار الحضارة القديمة والمجد السالف ، وأصبح الشرق مجالا لأطماع الطامعين من المستعمرين . وبذلك تكون هذه (الرابطة الشرقية) المقترحة هى نتيجة ظروف طارئة ذات طابع سياسى .

كما دعا الفرنسيون يوما الى (رابطة البحر المتوسط) ، وزعموا أن أهالى الأقاليم المطلة على هذا البحر ذات حضارة وثقافة من لون خاص وطابع مميز ، وكان من أهداف الفرنسيين شد أبناء سوريا ولبنان والمغرب العربى الى فرنسا ، وتوثيق الصلات السياسية بين هؤلاء العرب وفرنسا . حقا كانت سواحل البحر المتوسط فى عهد من عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ، ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد انتشرت الحضارة أولا الى شمال أوروبا ، ثم الى الأمريكتين ، وأصبحت الحضارة غربية ، ثم أوروبية أو امريكية ، ولم يعد للبحر المتوسط ميزة عامة أو طابع مميز[١] .

وتعرضت لفظة (الشرق) فى أعقاب الفتوحات العربية الاسلامية لتغيير كبير فى معناها ومدلولها ، اذ اتسع مضمونها .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

فقد انطلق الفاتحون العرب من شبه الجزيرة العربية ، لا الى الشمال والى الشرق فحسب ، بل الى الغرب أيضا ، ونجحوا فى فتح مصر وشمال أفريقية حتى وصلوا الى المحيط الأطلسى ، وهو الحد الغربى للعـــالم القديم حينئذ ، أى أن العرب قد تجاوزوا شرق العالم ، ووصلوا الى غربه • وتغيرت أوضاع المغرب العربى ، فقد انتشر فيه الاسلام ، والعروبة ، والحضارة الاسلامية ، والنظم العربية • وأصبح أهالى المغرب ، عربا ، وشرقيين ، ولم يعودوا كما كانوا مغاربة أو سكانا للمغرب ، حيث الحدود الغربية للعـــالم حينئذ ، وحيث تغرب الشمس كما يعتقدون •

وهنا يجد المفكر الألمـــانى المعاصر (بارت)[1] نفسه فى حيرة شديدة ، فيقول : ومنذ الفتح العربى تعتبر مصر وبلدان شمال أفريقية ضمن الشرق ، ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب أفريقية الذى يسمى بالمغرب أى بلد غروب الشمس ، وان كان اسمه ــ الاستشراق ــ يفترض انه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها •

وفى نهاية الأمر ، لا يصل (بارت) الى تحديد ثابت نهائى لمفهوم كلمة (شرق) ، ويعترف هو بذلك ، ويرى الأفضل

---

(١) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ص ١٢

له أن يوجه اهتمامه الى تعريف (الاستشراق) ، فيقول[1] :
« ومهما يكن من أمر ، فان اســم الشرق لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط ، والمهم هو الموضوع ذاته ، أى الاستشراق » .

ان تحديد (العـــالم الشرقى) يشبه في صعوبة تحديده (العالم العربى) . فقد اختلف تحديد أبعاد (العالم العربى) تبعا لاختلاف العصور والأزمان . وربما لو سلطنا الاضواء الآن على مفهوم (العالم العربى) على مر العصور التاريخية ، لأمكننا أن نفهم أبعاد مفهوم (العالم الشرقى) ، وخاصة أن العرب يمثلون جانبا كبيرا من أهالى الشرق ، وقد ارتبط تاريخ العرب بتاريخ الشرق قرونا طويلة .

ولذا نتساءل : من هم العرب ؟ وعلى أى أساس تطلق عليهم صفة العرب ؟ أعلى أساس انحدارهم من جنس واحد ؟ أم على أساس اللغة ؟ أم على اساس الحضـــارة الواحدة والتكوين الفعلى المتشابه ، والنظم الاجتماعية المشتركة ؟

فى العصور السابقة للاسلام ، كان يقطن فى الجزيرة فريقان متميزان ، البدو والحضر ، وكانت كلمة (عربى) بمعنـــاها الاتنوغرافى الضيق تطلق على البدو . ثم ظهر الاسلام ،

---

(١) المصدر الســابق .

وسار انتشار اللغة العربية حينا الى جنب مع انتشار الاسلام .
وبعد مائة سنة من ظهور الاســـلام قامت امبراطورية عربية اسلامية تمتد من شبه جزيرة أيبريا ، فى الغرب الى شرق البحر المتوسط ثم الى شواطىء السند وبحر الخزر فى الشرق .
وفى القرون التى أعقبت ذلك كان الطرفان الشرقى والعربى لهذه الامبراطورية يتراوحان بين مد وجزر . ولكن الدعوة الى الاسلام والدعوة الى العروبة لم يكونا متصلين ، فقـــد تقدم الاسلام مسافات بعيدة الى الأمام ، واستطاع أن يتخطى الحواجز التى وقفت دونها العروبة [1] .

أصبحت هناك خمس مجموعات من الأقطار ، سار فى بعضها الاسلام والعروبة فى طريق واحد ، بينما اختلفت الأوضاع فى الاقطار الاخرى .

أولا : فهناك أقطار فتحها العرب المسلمون ، فانتصرت فيها اللغة العربية ، وتغلبت على اللغات المحلية الأخرى ، وأصبح الاسلام هو دين الأغلبية العظمى ، وهى الاقطار التى تكون العالم العربى المعاصر .

ثانيا : وهناك أقطار أخرى إنتشر الاسلام فيها دون اللغة العربية ، مثـــل ايران وتركيا ، فهى دول اسلامية وليست دولا عربية .

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص١٩٤

ثالثا : وهناك أقطار ثالثة انحسر عنها الاسلام والعروبة ، مثل الأندلس وجزيرة صقلية .

رابعا : وهناك أقطار أخرى انتشر بها الاسلام نتيجة فتوح اسلامية غير عربية ، مثل فتوح الأتراك السلاجقة فى الاناضول ، وفتوح الاتراك العثمانيين فى البلقان ، وفتوح المغول فى الهند .

خامسا : أقطار انتشر بها الاسلام عن طريق غير الفتح العسكرى ، بل نتيجة جهود تجار ووعاظ ، كما فى أندونيسيا وماليزيا ، وهى أيضا اقطار اسلامية وغير عربية[1] .

أما فى تاريخنا المعاصر ، فان كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية فهو عربى ، مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها ، ومهما كانت الديانة التى يدين بها والمذهب الذى ينتمى اليه ، ومهما كان أصله أو نسبه .

ويرى المؤرخ العربى المعاصر المرحوم الأستاذ شفيق غربال[2] أنه هناك أحداث تاريخية طارئة كان من آثارها شطر العالم الاسلامى الى (شرق أقصى) يقع فى شرق العراق ، والى (وسط) يمتد من العراق الى مصر ، والى (غرب) يقع فى

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤ .
(٢) فى مقال له بمجلة الهلال فى اول يناير ١٩٥٥ بعنوان (الجامعة الاسلامية واتحاد العرب) .

غربى مصر . أما هذه الأحداث التاريخية الطارئة ، فهى الحروب الصليبية ، واكتساحات التتار فى الشرق ، واجلاء المسلمين عن الأندلس ، ثم مهاجمة الغرب ، ثم حركات التطويق البحرية الكبرى التى ملكت الأوروبيين آسيا والاقاليم العربية .

المفهوم الحضارى للشرق :

وبعد ... فما هو مفهوم كلمة (شرق) ؟ ونحن نرى أن هذا المفهوم لا يخضع لعامل جغـــرافى أو أقليمى ، ونرى أن الحضارة هى أساس المضمون والمدلول . فللشرق حضـــارته ذات الطـــابع المتميز الخاص ، مما يختلف كثـــيرا عن ألوان الحضارات الاخرى . ان من يرحل بين الدول العربية ، والدول الاسلامية ، ودول الشرق الأقصى ، ودول جنوب شرق آسيا ، يجد تقاربا كبيرا بين المجموعات البشرية الكثيرة التى تعيش فى هذه الأراضى الشاسعة ، قد يختلفون فى صفاتهم الجنسية بحكم البيئة الجغرافية ، وفى لغاتهم وأديانهم ، ولكن أساليب الحياة ، والنظرة الى الحياة ، والأفكار ، قد تكون متقاربة .

وهذا التقارب فى رأينا يرجع الى وحدة التاريخ المشترك ، ولا نقصد الوحدة الكاملة . فقد ظل العالم قرونا طويلة سحيقة يعيش فى رقعة صغيرة من الأرض ، يعيشون فى وسط وجنوب وغرب آسيا ، وفى شمال أفريقية ، وفى جنوب أوروبا . فلم تكن الامريكتان أو استراليا قد تم اكتشافهما بعد ، كما كان

شمال أوروبا ووسط وجنوب أفريقية غير عامرة بالسكان . ولقد عاشت الأقوام فى هذه الرقعة المحدودة من العـــالم دهورا طويلا معا ، وتفاعلوا وامتزجوا حضاريا وفكريا واقتصـــاديا وسياسيا ، مما أوجد نوعا من التقارب والتجانس .

ان وحدة التاريخ ، او الوحدة النسبية ، تولـــد تقاربا فى العواطف والنزعات ، وتماثلا فى الأفكار والتقاليد والعادات ، والذكريات التاريخية تقرب النفوس والأفكار وتكون بينها نوعا من القرابة المعنوية وان هذه الوحدة التاريخية النسبية بين أبناء الشرق هى التى أعطتهم لونا وطابعا حضاريا واحدا .

لقد كانت الحضارات فى العالم قبل الفتوحات العربيـــة الاسلامية متقاربة الى حد كبير ، فقد اقتبس الاغريق كثيرا من ألوان حضارتهم من المصريين والفينيقيين والكلدانيين والفرس، وعرف الرومان الحياة المدنية خلال صراعهم مع القرطنجنيين . وحينما أصبحت الدولتان الفارسية والرومانية أكبر دول العالم القديم ، حدث امتزاج حضـــارى بين الدولتين رغم عدائهما وتنافسهما فى مجالات السياسة ، وكان الصدام الحــربى من عوامل الاتصال الحضارى بين الفرس والروم ، وقد غزت كل دولة أراضى الدولة الأخرى .

ثم بدأت الفتوحات العـــربية ، وحمل العـــرب الفاتحون الحضارة الزاهرة التى أتى بها الدين الاســـلامى ، واتصلت الحضارة الاسلامية بالحضارات العالمية الموجودة ، وحـــدث

فعلا امتزاج حضارى كبير .

لقد كان للطريق ممهدا أمام امتزاج الحضارات ، فقد كان العرب عند الفتح أميون فاضطروا الى الاعتماد على غيرهم فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، وسرعان ما تأثر بحضارة الهلال الخصيب ، وأصبحت الحضارة العربية مزيجا من حضارات مختلفة (1) .

لم يجد العرب الفاتحون بأسا من اقتباس الحضارات المختلفة التى وجدوها فى الاقطار التى فتحوها ، ولكن العرب ـ وهم العنصر القوى الفاتح ـ عدلوا هذه الحضارات بما يلائم الدين الاسلامى ، وبما يتفق والعقلية والتقاليد العربية . وشمل اقتباس العرب من الفرس والروم جميع النواحى ، سواء كان ذلك فى نظم الحكم والسياسة ، أو فى الحرف والمهن ، أو فى اللغة والآداب ، بل فى وسائل الترف والزينة أيضا (2) .

ولعبت اللغة العربية دورا كبيرا فى مزج الحضارات والعناصر المتنافرة فى الاقطار المفتوحة . فقد أدى تعميم استخدام اللغة العربية فى هذه الأقطار الى اندماج الاجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها

(1) الدكتور عبد العزيز الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٦ ـ ٧ .

(2) أنظر كتابنا (العرب والحضارة) ص ٧٥ تجد كثيرا من التفاصيل .

العنصر العربى الحاكم[1] .

وأدى انتشار الاسلام أيضا الى امتزاج واندماج العـرب بالعناصر الأخرى فى الاقطار المفتوحة . فقد منح الاسـلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن هذه الاقطار ما تحتاجه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم فى سبيله . وقد منحت هذه المثل العليا أهالى الاقطار مشاعرامشتركة وآمالا واحـدة وايمانا عميقا ، وكانت الدولة التى اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية[2] .

وكان للفتوح العربية طابع خاص لانجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد الحـرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العـالم الرومانى ، والترك والمغول وغيرهم ، وان استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، الا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جـديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهـرت قبلها ، وأقبل أهالى الأقطار المفتوحة على هذه الحضارة ، ولذا ظل النفوذ العربى بها ثابتـا[3] .

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين) ص ٦٨ .

(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) ص ٧١٨ — ٧١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧١ — ١٧٢ .

أصبحت الحضارة العربية الاسلامية تسود معظم أرجاء العالم القديم طوال قرون كثيرة ، فقد امتدت فى وسط آسيا ، وشمال الهند ، وغرب وجنوب آسيا ، وشمال أفريقية ، وجنوب غرب أوروبا ، وجميع جذر البحر المتوسط . مما أدى الى وحدة حضارية عالمية ، منحت هذه الأراضى الشاسعة لونا حضاريا متجانسا ثم تقلص نفوذ العرب السياسى عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى نهاية الحضارة العربية فى أوروبا ، فقد ظلت التأثيرات العربية باقية ، واستمر الطابع العربى قائما فى كل مكان فى القارة ، وأصبحت حضارة العرب أساسا أقام الأوروبيون عليه حضارتهم الحديثة [1] .

لم يكن امتداد الاسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لانشاء امبراطورية عربية يسودها العرب المسلمون ، وانما كان فى الواقع حركة نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا . وكان العربى الذى حمل أعباء الفتوحات ، وهاجر الى البلاد المفتوحة شخصا ممتازا خبيرا بالتقاليد واقتباس ما ينسبه ويفيده . فكان لا يستقر الى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم . ورغم الأصل البدوى ، فقد كان يحب اللين والترف ويتذوق الجمال ، ولذا

---

(١) انظر كتابنا (العرب فى أوروبا) تجد كثيرا من التفصيلات التاريخية .

لم يخرب العرب المدن التى فتحوها ، بل ظلت هذه المـدن عامرة تنبض بالحياة والحضارة [1] .

ومرت القرون ، وظهرت الدولة العثمانية التى نجحت أن تمد نفوذها الى كثير من أقطار الشرق ، وخاصة العالم العربى الاسلامى . وقد أقام العثمانيـون حكمهم على أساس ألا يتدخلوا فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، الا بقدر ، فما دام العرب على ولائهم وخضوعهم منصرفين الى حيـاتهم المـألوفة ويقدمون الأمـوال التى تطلب منهم ، ظلوا بمأمن من سلطان الدولة ، لاتمتد اليهم أيدى عمالها . وقد حفظت هذه الطريقة للعرب قوميتهم وكيانهم وحضارتهم . ولذا فان الوحدة الحضـارية التى شهدها الشرق ، وخاصـة الشرق العربى ، قبل الفتوحات العثمانية ظلت قائمة طوال العصر العثمانى الذى اسـتمر أربعة قرون ، حتى مطلع القـرن العشرين .

من هو المستشرق ؟ :

واذا كان من العسير ـ كما رأينا ـ وضع تحـديد ثابت لمفهوم كلمة (شرق) ، فانه من الصعوبة بمكان أيضا تعريف

---

(١) دكتور حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤١٦ .

(المستشرق) تعريفا قاطعا شاملا . ولكن يمكننا أن نقول أن « المستشرق هو عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية » . فلابد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بانتاجه العلمى . ولابد أن ينتمى هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنه شرقى بحكم مولده وبيئته وحضارته . وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكنها ترتبط بالشرق .

وليس من الضرورى أن يرحل هذا المستشرق الى الشرق ، ليعيش فيه ، أو ليتطبع بطباعه أو حضارته ، فقد يقوم بدراساته فى جامعته الغربية ، أو فى وطنه . وان كان رحيله الى الشرق يجعل دراساته أكثر فائدة وأقرب الى الواقعية والحقيقة . وليس من الضرورى أن يعتنق هذا المستشرق الاسلام أو أحد الأديان السائدة فى الشرق ، كما ليس من الضرورى أيضا أن يتحدث باللغات الشرقية ، وان كان الالمام بها أو اجادتها يعنيه كثيرا فى دراسته وأبحاثه .

وحينما بدأ الاستشراق ، كان غالبا هواية يهواها بعض الأوروبيين الذين جذبهم الشرق بسحره وأسراره ومميزاته الحضارية الخاصة . واقترن الاستشراق أحيانا بحب الرحلات الى الشرق ، وأصبحت كتب هؤلاء النفر من المستشرقين أقرب الى الكتب الوصفية أو كتب الرحلات ، فاهتم المستشرق بحشد مؤلفاته بكل ما هو غريب أو عجيب مما يثير تشويق الأوروبي ويدفعه للاطلاع على هذه الصورة من الحياة التى تخالف صور حياته المألوفة . كما اتجه بعض الأوروبيين أيضا نحو الاستشراق ، بدافع من التعصب الدينى أو التعصب القومى . ولكن الاستشراق فى العصر الحديث أصبح حرفة ، واتخذ الطابع العلمى المنظم ، وأصبح له قواعده وأسسه المنهجية ، نتيجة التطور العلمى ، واختلاف الظروف السياسية فى العالم ، ونهضة الشرق ، وتطور العلاقات بين الشرق وعالم الغرب . ولذا أصبح المستشرق فى القرن العشرين يختلف تماما عن المستشرق فى العصور الوسطى ، أو فى مطلع العصور الحديثة .

وهكذا خضع تحديد مفهوم (المستشرق) لسنة الحياة والتطور والارتقاء ، ولاختلاف ظروف الزمان والمكان ، ولتطور العلاقات

الدولية ، وللتقدم العلمى والحضارى ، مما يدفعنا الى دراسة المراحل المختلفة التى مر بها الاستشراق ، منذ ظهوره على المسرح العالمى ، حتى السبعينات من القرن العشرين ، ثم القاء نظرة على مستقبل الاشراق .

الفصل الثاني

مراحل الاستشراق في التاريخ الإسلامي

آراء حول نقطة البداية :

هناك آراء كثيرة حول البداية ونقطة الانطلاق ، فهناك من يربط بين دراسة التاريخ العربي والاسلامي في أوروبا وبداية الأطماع الاستعمارية الاوروبية في العالمين العربي والاسلامي في أواخر القرن الثامن عشر ، حينما ضعفت قبضة الدول العثمانية ،وبدأت الدول الأوروبية تنظر بعين الطمع في ممتلكات ذلك « الرجل المريض » قبل أن تعلن وفاته وترث تركته .

فقد حرصت الدولة العثمانية في أول عهد حكمها للبلاد العربية والاسلامية ، على أن تسدل ستارا كثيفا يحجب أنظار الاوروبيين عن هذه البلاد ، حتى لا تمتد اليها أصابع الاستعمار ، وان كان هذا الستار قد نجح فترة طويلة في أن يحمي البلاد العربية والاسلامية من الأطماع الاستعمارية الا أنه منع أي لون من ألوان الاتصال الحضاري ، الذي قد يتيح الفرصة للعلماء الاوروبيين لدراسة تاريخ

الشرق وحضارته ، كما جعل العـرب والمسلمين بمعزل عن حضارة أوروبا ، وقد كانت هذه القارة تختار عصور النهضة بعد تخليها عن طابع العصور الوسطى وحضارتها •

وهناك رأى يجعل الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ هى بداية الاسـتشراق الايجابى الحقيقى ، حينما صحب نابليون معه على ظهر أسطوله عددا كبيرا من العلماء ، الذين تخصصوا فى فروع عديدة من المعـارف ، كما صحب مطبعة عربية • وقد بدأ هؤلاء العلماء الفرنسيون نشاطهم منذ اللحظة الاولى التى وطأت أقدامهم فيها مصر ، وأنتجوا انتاجا حضاريا ضخما ، لا يزال حتى اليوم منبعا فكريا ، ورغم اخفاق الحملة الفرنسية سياسيا وعسكريا ، الا أنها نجحت حضاريا ، رغم قصر مدة بقـاء الحملة فى مصر وتركت الحملة بعد جلائها عن المستشرقين فى العهود التالية •

وكانت رغبة كثير من الدول العربية والاسلامية فى التحرر من الحكم العثمانى ، دافعا للعرب وللمسلمين على المطالبـة باقتباس بعض معالم الحضـارة الاوروبية التى لا تخالف عقائد العرب أو تقاليدهم • فقد اتصفت فترة الحكم العثمانى بركود حضارى أدى الى جمود فكرى ، فقد كان هذا الحكم العثمانى نكسة شديدة أصابت الحضارة العربية بعد عهـود

طويلة من الازدهار الحضارى ، وكانت أوروبا فى تلك العهود تعانى من ظلام الجهل والتأخر .ولذا رأى كثير من العرب والمسلمين أن يسيروا فى نفس الطريق الحضارى الذى سار الاوروبيون فيه قبلهم حتى بلغوا ما وصلوا اليه من مظاهر حضارية راقية .وقد ظهر مفكرون مسلمون ، مثل جمال الدين الافغانى ، ينادون بأن اقتباس الحضارة الاوروبية هى الوسيلة المثلى لرقى العالم الاسلامى والخروج به الى عالم النور والحضارة الزاهرة .

البداية الحقيقية :

هذه هى بعض الآراء عن بداية الاستشراق ، ولكننا نرى أن الاستشراق قد بدأ منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر . بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الاسلامية المبكرة . وفى رأينا أن الاستشراق هو « اهتمام بالدراسات الشرقية » ، وقد يأخذ هذا « الاهتمام » صورة الاخذ أو العطاء . والفكرة الشائعة بين الكثيرين أن الاستشراق هو أن يقدم المستشرقون انتاجهم الفكرى لأبناء الشرق ، ولكننا نرى أن ذلك هو جانب واحد من الاستشراق ، ونرى أن اقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو استشراق أيضا ، فهم يجعلون الدراسات الشرقية موضع دراساتهم واهتماماتهم والحضارة فى جوهرها وحقيقتها

عالمية ، فهى ملك للأسرة البشرية الكبيرة جمعاء ، والحضارة أيضا أخذ وعطاء ، واقتباس بعض معالم الحضارات العالمية هو فى الحقيقة تجديد لدماء الحضارة المحليــة ، ودامغا لها للتطور والتقــدم .

وعلى هــذا الاساس ، فاننا نرى ـــ دون مبــالغة ـــ أن الاستشراق قد بدأ فى أوروبا نفسها ، فى العصور الوســطى الاسلامية ، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة فى شبه جزيرة أيبريا (بلاد الاندلس) ، وفى فرنسا وايطاليا وصقلية وجــذر البحر المتوســط . فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية والاسلامية تسبح فى دياجير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هــذه الدياجير الحالكة ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين . فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حملة مشاعل الثقافة والحضارة فى ربوع العالم أجمع ، وكانت الحضارة العربية هى أساس النهضة فى أوروبا . وقد كتبت أسبانيا العربية الاسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة فى القارة الاوروبية فى العصور الوسطى . لقد أقبل الاوروبيون ينهلون من منابع الحضارة العربية ، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الاندلس يدرســون فى جامعاتها ومعاهدها .

أفلا يمكن أن نسمى ذلك استشراقا ؟ فاننا نرى أن الاوروبيين حينما أقدموا على الاقتباس من حضــارة الشرق ، العــربية والاسلامية ، وحينما أصبحت هــذه الحضارة الشرقية هى أساس حضارة القارة الأوروبية ، أصبح الاوروبيون حينئذ مستشرقين • فقد وجد الاوربيون فى حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الاوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها •

وقد اتخذ اقبال الاوروبيين على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا علميا منظما ، مما يجعله استشراقا على أسس علمية ثابتة واضحة • فقــد اهتمت الدول الاوروبية بارسال بعثات علمية الى بلاد الاندلس العربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات فى معاهدها الكبرى ، نتيجة ذيوع شهرة الاندلس وحضارتها الزاهرة فى انجلترا وفرنسا وهولندة وتوسكانا •

وهناك أمثلة كثيرة توضح هذا الاستشراق العلمى المنظم ؛ نذكر منها البعثات الثلاث التى قدمت الى الاندلس ، وأولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا • والبعثة الثانية انجليزية وعلى رأســها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) • أما البعثة الثالثة فكانت أسبانية ، وبعضها من مقاطعات (سفوا)

و (البافر) و (ساكسونيا) و (الرين) وقد بلغ عدد أفرادها (٢١٣ هـ - ١٢٩٣ م) سبعمائة طالب وطالبة .

كما بعث الملك فيليب البافارى الى الخليفة الأموى بالاندلس (هشام الأول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الاندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده ، ووافق الخليفة على طلبه . كما بعث الملك الجرمانى وفدا برئاسة وزيره الأول (ويلميين) ، وقد لقبه الاندلسيون (وليم الأمين) لانه كان أمينا فى نقل ما رآه من حضارة الاندلس وعظمتها الى الملك ، وحثه على الاستمرار فى انفاذ البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة العربية .

وتوالت البعثات على الأندلس ، فأرسل ملك انجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والاعيان الى اشبيلية يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى النبيل (سفليك) . وقدمت بعثات أخرى من فرنسا وايطاليا والأراضى الواطئة ، وامتلأت بهم معاهد غرناطة وأشبيلية[١] .

فقد حفظ عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى العلوم

---

(١) طه المدور : الديانات والحضارات ص ٧٠ .

والآداب التى أهملت فى كل مكان ، حتى فى القسطنطينية . والى بلاد الأندلس كان يقصد الاوروبيون المتعطشون للعلم والمعرفة ، وكان منهم (جربرت) الذى أصبح بابا فى سنة ٩٩٩ م باسم (سلفستر الثانى) . ولم يظهر فى أوروبا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقم بدراسة الكتب العربية . وظلت ترجمات كتب العـــرب ، ولا ســيما الكتب العلمية ، مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات خمس قرون أو ستة قرون[1] .

ويرى الأب (خوان أندريس) أن قيام التأليف العلمى فى أوروبا فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه الى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو اليزى أخذ عن العـــرب الجبر ، وأخذ أرنالدو الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوروبى من كتب العرب وخاصة الزهراوى . كما استوحى (كلير) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجى[2] .

استفاد الأوروبيون من الحضارة العربية الاسلامية ، بينما

---

(١) أنظر كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون ، وكتابنا العرب فى أوروبا تجد كثيرا من التفاصيل التى توضح أثر حضارة العرب فى حضارة أوروبا .

(٢) بالنثيـــا : الفكر الأندلسى ص ٣٣٢ .

لم يستفيدوا شيئا يذكر من الحضارتين اليونانية والرومانية .
أما الحضارة اليونانية فلم تكن الا عبارة عن جامعة يونانية تلقن الشعب الاغريقى العلوم الفلسفية التى تحتاج الى عقول مؤهلة من قبل لتلقفها وتفهم مراميها ، ولذا عجزت عن أن تصل الى أوساط أوروبا . كما عجزت شعوب هذه القارة الجاهلة عن هضم الحضارة اليونانية .

أما الرومان فقد وصفهم المؤرخ الفرنسى (سيبنيه بوس) بأنهم كانوا سواء فى المشرق أو المغرب فاتحين مستعمرين لا يفكرون الا فى اقامة الأبنية الضخمة والملاعب الواسعة لاظهار قوتهم وعظمتهم للأمم الواقعة تحت استعمارهم ، ثم البحث عن منابع المياه لتنظيم وسائل الرى لأجل استثمار الارض لمصلحتهم . ولكن عندما نريد أن نبحث فى النواحى الأخرى التى يجب أن تستفيد الشعوب المستعمرة منها كالنمو الاجتماعى والارتقاء العلمى والأخلاقى ، فلا نجد الا آثارا لا تكاد تذكر .

استشراق من نتاج التعصب الدينى :

والى جانب تلك الصورة التى رأيناها من صور الاستشراق المبكر ، نجد صورة أخرى ، تختلف كثيرا فى أهدافها وأبعادها عن الصورة الأولى . فقد شهدت العصور الوسطى لونا آخر

من الاستشراق ، كان من نتاج التعصب الدينى الذى كان من خصائص تلك العصور الوسيطة . فقد أقبل بعض الأوروبيين على الاستشراق من أجل الكيد للاسلام والعروبة ، وكنتيجة للتعصب ضد المسلمين والعرب . وهى حركة واسعة منظمة تشبه فى بعض جوانبها وأهدافها ، تيارات الشعوبية وحركات الزنادقة التى شهدها الشرق الاسلامى فى العصر العباسى الاول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) .

وكان هذا الاستشراق الذى يصور التعصب الدينى ، هو فى الحقيقة صورة للعداء التقليدى الذى ساد فى العصور الوسطى بين الشرق والغرب . ويقول كرد على[١] عن هذا العداء : وأهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين فى القرون الأولى من الهجرة ، كون الاسلام جاء لهداية البشر كافة ، فأتى على الوثنية فى البلاد التى انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير . وخافت أوروبا النصرانية من تسربه الى ربوعها ، فاتفقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتى الاندلس وصقلية وما اليهما من أرض الفرنجة ، ثم نشأت الحروب الصليبية ودامت قرنين

---

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢ (طبعة القاهرة ١٩٥٠) .

كاملين ، وقدمت الجيوش الصليبية الى الشام ومصر ، حتى كتبت الغلبة الاخيرة للاسلام فى أرض الشام •

يحدد المستشرق (رودى بارت)[1] بداية هذا النوع من الاستشراق بسنة ١١٤٣ م حين تمت ترجمة القرآن لاول مرة الى اللغة اللاتينية بتوجيه من الاب (بيتروس فينيرا بيليس) رئيس دير كلونى • ويرى (بارت) أن الهدف من هذا النوع من الاستشراق هو (التبشير) ، واقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام ، واجتذابهم الى الدين المسيحى •

ولم تقم هذه الصورة من الاستشراق على أساس علمى منظم ، حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الاولى فى تعرفهم على الاسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير ، ولكن كل محاولة لتقييم هـذه المصادر على نحو موضوعى نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل فى أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير • وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم الا تلك المعلومات التى تتفق مع هذا الرأى المتخذ قبل ، وكانوا يتلقفون بنهم كل الاخبار التى تلوح لهم مسيئة الى النبى العربى والى دين الاســلام[2] •

---

(١) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ص ٩.
(٢) المصدر السابق ص ١٠ •

ومن أفضل الكتب التى درست هذا الاستشراق النابع من التعصب الدينى فى العصور الوسطى ، كتاب (الحضـارة الاسلامية) للمؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودابخش) والذى قمنا بترجمته الى اللغة العربية سنة ١٩٦٠ • ويرى أن هذا التعصب الدينى كان من أسباب العداء التقليدى بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية • وقد أدت العـلاقات المحدودة بين المسلمين والبيزنطيين فى القرون الاولى من العصر الوسيط الى أن الاسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحى ، كما ظل محمد صلى الله عليه وسلم ، فى الأدب الاوروبى شخصية غامضة •

ويرى (خودابخش)[١] أن العـامل الرئيسى فى جهـل المسيحيين فى العصور الوسطى بالاسلام والرسول هو سيطرة الكنيسة على أهالى العصور المظلمة ، وقد أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية • وكان هذا الشعور بالخطر هو الشرارة التى أشعلت النيران ، وبدأت الكنيسة الكاثوليكية نشاطها المعادى للاسلام • وكانت الكنيسة فى بداية الامر ؛ تظن أن انتصار الاسلام ما هو الا سحابة عن قريب تنقشع ، ولكنها سرعان ما أدركت أن انتصاره كان كاملا مطلقا •

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٥ (طبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٦٠) •

وبمرور السنين ، زاد خطر المسلمين على الدول المسيحية ، وبدأ المسيحيون يبحثون حولهم عن قوة تستطيع أن تساعدهم لوقف هذا الزحف المستمر للاسلام • ونهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح • واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيي العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور فاننا لا ندهش اذا لمسنا ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور •

ومن سوء الحظ أيضا ، أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الاولية عن الاسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية • فقد نظر البيزنطيون الى الاسلام نظرة عداء ، وهذا العداء يبدو منطقيا اذا تذكرنا أن المسلمين قد انتزعوا من الدولة البيزنطية (أى الدولة الرومانية الشرقية) أحسن ولاياتها ، كما أن الاسلام الذى يدعو الى التوحيد يعارض عقيدة البيزنطيين التى تدعو الى التثليث • ولذا لا غرو أن اعتبر البيزنطيون الاسلام خطرا على عقيدتهم • ولكن الدولة البيزنطية كانت تعانى من الضعف السياسى ما جعلها

عاجزة عن الوقوف فى وجه المسلمين ، فوجهت كل همها الى تجريح عقيدتهم[1] .

تطور الاستشراق فى العصور الوسطى :

أدى قيام الحــروب الصليبية الى ازدياد روح التعصب الدينى ، وانعكست هذه الروح على (الاستشراق) . وقد بدأ الجاحدون للاسلام من الاوروبيين يتعلمون اللغة العربية ، لا حبا فيها ، ولكن ليتخذوها وسيلة الى فهم القرآن ، وسلاحا فى مناقشته ، وقد أدركوا حينئذ أن المناقشة على علم ، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدة .

والواقع أن هذه الحملة التى كانت ثمرة الحروب الصليبية قد أحسن تنظيمها ، وكانت أشبه بحركة مقاومة علمية للاسلام . واذا كانت الحروب الصليبية قد آبت بما آبت به من الاخفاق بعد أن استمرت قرنين من الزمان ، ولم ينجح السلاح ولا القوة ولا العدد الكثير ولا الحمــلات المسلحة فى دعم الامارات الصليبية اللاتينية التى أقامها المتدفقون من الغرب على بلاد العرب والاسلام ، فان سلاحا آخر غير الحديد والنار كانت تعده أوروبا لمحاربة الاسلام ، ذلك هو سلاح المقاومة لهــذا

---

(1) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٩ .

الدين بوسائل علمية وعن طريق الهــدم المعنوى فى حــركة ظاهرها العلم والبحث وباطنها المكر والخبث[1] .

وكانت الحروب الصليبية من منابع الاستشراق ، وكانت هذه الحروب فرصة لاتصال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخا طويلا ، فكان لا بد للغرب المعتدى من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاســتبداد به ، ومن أهم الوسائل الموصلة الى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخرى .

كما أن هذه الحروب قد أطلعت الغربيين عن طريق الاتصال بالشرق من جهة ، والمقــارنة بين الاسلام ودينهم من جهة أخرى ، على مواطن فى دينهم تحتاج الى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة الاصلاح الدينى ، وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العــبرانية ، ثم انتقلوا الى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية فى التبشير بالمسيحية فى الشرق ، فاستلزم هــذا دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، لتكون تلك الدراسة معوانا على النجاح فى هذا

---

(1) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ١٦ — ١٧ (طبعة القاهرة ١٩٦٠) .

التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق[1] .

لم تكن الحروب الصليبية فى الحقيقة حروبا دينية ، بل هى الحلقة الاولى فى سلسلة الاطماع الاوروبية فى الشرق العربى ، وهى حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمرت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الاسلامية الاولى فى أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية فى أسبانيا وفرنسا وايطاليا وجزر البحر المتوسط . وتضاف الى هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، والى صميم التاريخ الاوروبى فى ذلك القرن[2] .

كان من جراء الفتوحات الاسلامية لقسم غير قليل من المقاطعات الاوروبية أن تفتحت أذهان شعوبها الى وجوب نبذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانبا للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الاسلامى

---

(١) أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ٧ ــ ٨ (سلسلة الثقافة الاسلامية) .

(٢) أنظر مقدمة كتاب (حملة لويس التاسع على مصر) للدكتور محمد مصطفى زيادة .

الذى داهمهم بفتوحاته وهم فى غفلة عن ذلك ، وراح القوم ينادون تحت زعامة البابا (أوربن الثانى) سنة ١٠٩٦ م الى اعلان حرب صليبية •

ومن عوامل الحرب الصليبية رغبة البابوات فى توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية ، ومحاولة الاستيلاء على ما بيد المسلمين من الممتلكات • ومنها مطامع الأمراء والنبلاء على انشاء امارات مستقلة فى الشرق • وطمع المدن الايطالية فى الحصول على منتجات الشرق ومتاجره • ومن هذه العوامل أيضا انتشار الأوبئة والمجاعات فى غرب أوروبا [1] •

واذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على الصاق شارة الصليب على ثيابهم ، مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية فى التاريخ ، فانه ليس هناك ما يثبت أن الصليب والكنيسة والدين كانت القوى الكبرى التى حركت مشاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية • وربما كان أقرب الى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين — وهو الأستاذ طومسون — من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول

(١) الدكتور الباز العرينى • مصر فى عصر الأيوبيين ص ٩ (سلسلة الف كتاب) •

حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى [1] .

أدت الحروب الصليبية الى انتعاش الاستشراق ، فقد أدت الى اتصال حضارى واسع النطاق بين الشرق والغرب . ولكن الشرق لم يستفد شيئا من قدوم الصليبيين ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، اذ نهلوا من منابع الحضارة الاسلامية التى لا تنضب ، فقال (جوستاف لوبون) [2] : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية . ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشىء من الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال .

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا فى التجارة ، أو جاءوا الى فلسطين للزيارة . أما فى هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الاسلامى ، فرأوا المسلمين فى عقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات

---

(١) دكتور سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٩١ (المكتبة الثقافية) .

(٢) حضارة العرب ص ٣٣٤ .

حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر •

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من الحضـــارة العربية ، مما أدى الى رقى شـــئون أوروبا العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعيـــة • وكانت الحـــروب الصليبية وما أدت اليه من اطلاع الصليبيين على الحضارة الاسلامية ، هى الخطوة الأولى نحو عصر النهضة فى أوروبا • فيقـــول (لوبـــون) : ان الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس الى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوروبا تعول عليهم فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم •

الاستشراق فى العصر العثمانى :

وبعد ظهور الدولة العثمانية وتوسعها فى القارة الأوروبية ، دخل الاستشراق فى مرحلة متميزة • فقـــد ازدادت روح التعصب الصليبية • وقد اعترف بذلك (جوستاف لوبون) فقال : « لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم فى عهد شارل مارتل ، وفى الحروب الصليبية ، وبعد استيلاء العثمانيين على الآستانة ، يذلوننا بحضارتهم السامية

الساحقة . ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الاسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءا من نظامنا » .

وأوضح المؤرخ الهندى المسلم (خودابخش)[1] أثر حقد الأوروبيين على العثمانيين فى ازدياد الاستشراق وروح كراهية الاســلام والمسلمين ، فقال : حينما ظهر الأتراك العثمانيون بمظهر حماة الاسلام ، بعد سقوط الخلافة فى بغداد ، بدأ دور جديد من صراع الاسلام والمسيحية . أما الكنيسة الغربية ، فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الكاثوليكية ، لاخوتها وغيرتها على الدولة البيزنطية ، الى تنظيم حملات صــليبية للانتقام من الأتراك لـــا اقترفوه ضد المسيحيين ، وكان غرض هذه الحملات الحقيقى مقاومة الاسلام المتزايدة .

ويرسم (كرد على)[2] صورة لأحقاد أوروبا علي العثمانيين ، مما أدي الى تعصب فكرى ودينى وقومى فيقول: وبديهى بعد هذه الطوائل والأحقاد التى طالت لياليها السود ، خصوصا بعد أن هزت الدولة العثمانية فى العصور الاخيرة أعصــاب أوروبا زمنا ، أن يقول الخصم فى خصمه ما قد يحط من قدره ، ويصغر

---

(١) خوادبخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٩ .
(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ص ٣ .

من أمره ، ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشيا فى الغرب ، وأن الدين كان مسـيطرا على كل عالم وباحث ، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف فى الجوهر والعرض فى الحادثة الواحدة ، لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومى .

ويبرز المفكر الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث)[1] دور الاتراك العثمانيين فى حماية الاسلام والعالم الاسلامى ، فيقول : ليس تاريخ الأتراك الاسلامى بالبعيد ، ولكنهم مثل العرب المسلمين ، فقـد كان الأتراك عظماء فى اسـلامهم ، واستغلوا عظمتهم فى دعم الاسلام ، فنشروه فى جهات كثيرة كالهند ، ودافعوا عنه ضد المغول والصليبيين ، وهم الذين تغلبوا على الدولة البيزنطية ، ألد أعداء الاسلام ، فقضوا عليها . وفضلا عن ذلك ، فقد نشر الأتراك المستعمرات الاسلامية فى جنوب أوروبا . أما من جهة الثقـافة الاسلامية فقد منحوها العون الكثير بنشاطهم ومثابرتهم ، كما زودوا الصوفية بعناصر مخلصة متحمسة ، ومنهم من حصل على أعلى الدرجات العلمية الاسلامية ، وقد بنوا المساجد الفخمة وعمروها .

ويشير (سميث) [2] الى نتـائج الانتصارات العثمانية

---

(١)سميث : الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٥٢ (سلسلة كتب سياسـية) .

(٢)المصدر السابق ص ٤٢ .

فيقول : وكان التحدى والانتصارات تصـــل الى نطاق القيم والأفكار ، فالهجوم الاسلامى كان ينتظم النظر والعمل ، وكان الاسلام يركز أفكاره على مركز العقيدة المسيحية التى شرعت أوروبا تقيم عليهـــا مدنيتها ، وكان التحدى الاسلامى يتميز بالقوة حتى أنه تسلل بنجاح الى قرابة نصف العالم المسيحى ، فكان القـــوة الايجابية الوحيـــدة التى اكتسبت مرتدين عن المسيحية ، يقدر عددهم بعشرات الملايين ، وكان القوة الوحيدة التى أعلنت أن المذهب المسيحى ليس زائفا فقط ، بل شنيعا أيضـــــا .

الاستشراق فى التاريخ الحديث :

لم يتبع تطور الاستشراق من مراحـــله الأولى فى العصر الوسيط الى مرحلة التحول النهائى الى علم قائم على النقـــد التاريخى طريقا مباشرة مستقيمة . ولم يتشكل كعلم الا عندما تأكد استعداد الأوروبيين للانصراف عن الآراء السابقة ، وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى ، وللاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ، وعندما اجتهدوا فى نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ولكن الجهود التى بذلت لانصاف الشرق ورسم صورة له مستمدة من المصادر تعرضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت

سبيلها ، أو غطت عليها وأدت الى تشويه صورته • وكان من بين ممثلى « حركة التنوير » من رأوا فى النبى العربى أداة لله ومشرعا حكيما ورسولا للفضيلة وناطقا بكلمة الدين الطبيعى الفطرى مبشرا به • وصحب هذا الاتجاه تحمس رومانتيكى لكل ما هو شرقى[1] •

وليس من الممكن تحديد الفترة التى بدأ فيها مثل هذا الاتجاه الجديد على وجه الدقة • ويمكننا أن نحدده بمنتصف القرن التاسع عشر ، حيث بدأت الصفة العلمية بالمعنى الحديث تظهر فى هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذى قبل • ولكن النية المتجهة الى فهم الموضوعات فهما موضوعيا ، كانت موجودة قبل ذلك بكثير ، وكانت أوضح ما تكون فى مجال الدراسات اللغوية ، ودراسات اللغة العربية خاصة ، فقد كان تعلم وتعليم اللغة العربية يقتصر على التمكن من وقائع مجردة خالصة ، ولم يكن الاختلاف فى الأمور الدينية وما يتبعه من خطر تشويه المضمون يظهر ، الا بعد التمكن من اللغة ، وانتهاج سبيلها الى الثقافة العربية الاسلامية الغريبة المدونة[2] •

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٥ •

(٢) المصدر السابق ص ١٧ •

حتى اذا بدأت الأطماع الاستعمارية تظهر بوضوح فى الدول الاوروبية ، وبدأت هذه الدول فى اقتطــاع بعض أجزاء من الشرق العربى الذى كان خاضعا حينئذ للحكم العثمانى ، بدأ الاستشراق يدخل فى مرحلة جديدة متميزة .

وأدت هذه الأطماع الاوروبية الاستعمارية الى حرص دول أوروبا على الوقوف على التاريخ العربى والاسلامى ، والكشف عن الحضــارة العربية ، والتراث الاسلامى . فأحسنت كل دولة الى مستشرقيها ، فضمهم ملوكها الى حاشياتهم أمنــاء أسرار وتراجمــة ، وانتــدبوهم للعمل فى ســلكى الجيش والدبلوماســية الى بلدان الشرق وولوهم كراسى اللغــات الشرقية فى كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطــابع الوطنية ، وأجزلوا عطاءهم فى الحل والــترحال ، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية[1] .

ومضى الاستشراق والغزو الاستعمارى فترة طويلة فى طريق واحد . واذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التى نعرفها ، والتى أذن الله أن نتحرر منها ، فان المستشرقين منهم قد غزوا

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٩ (طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٥) .

تاريخ العرب والاسلام فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألفوا فيه كثيرا من الكتب . بل ساعدوا على تحقيق كثير من المخطوطات العربية التى نقلوها الى مكتبات بلادهم ، أو أخذوا صورها من مكتبات الشرق ، او استنسخوها على ذمة نشرها محققة . وقامت من أجل ذلك صـناعة نشر التراث العربى الاسلامى فى عدد من العواصم والمدن الكبرى فى أوروبا [1] .

ولكن رغم أن المستشرقين قد حاولوا أن يكون استشراقهم ودراساتهم على أسس علمية وطيدة ، الا أن بعضا منهم لم يحيدوا عن الروح الصليبية التعصبية القديمة . وكانت فكرة الصليبيين القديمة فى العداء للمسلمين مستمدة فى الحقيقة من الفكرة اليونانية ، كما استمدوا منهم أدبهم وفلسفتهم ، وهى أن العالم ينقسم الى يونانيين وبرابرة ، فاعتقدوا هم أيضـا أن العالم ينقسم الى سادة أوروبيين وعبيد من العالم الآخر . وكان الظن أن يصحح المستشرقون من الأوروبيين هذا الموقف ببحثهم وعلمهم . ولكن تبين أنهم من نفس البيئة التى كونت الصليبيين .

وكان من الأسـف أن يكون فى طليعة هؤلاء المستشرقين مستشرقون مبشرون ، فأخذوا يستخدمون الاسلام فى الطعن

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ (القاهرة ١٩٦٠) .

عليه أداة للتبشير ويختارون الاشياء التى تثير الأوروبيين على المسلمين • وجاء من بعـــدهم من المستشرقين غير المبشرين ، فسلكوا مسلكهم واحتذوا حذوهم ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد ، بل كانوا يضعون الاتهام أولا ثم يبحثون عن الأدلة التى تقوى هذا الاتهام ، فيما عدا القليل منهم [1] •

الاستشراق فى النصف الثانى من القرن العشرين :

بدأت يقظة الشرق العـــربى فى مطلع القـــرن العشرين ، وحرصت كثير من الدول العربية والاســـلامية على انشـــاء الجامعات والمعاهد ، وقد أتت بثمارها فى الأربعينات من القرن العشرين ، حيث ظهر علمـــاء متخصصون من بين العـــرب والمسلمين ، قاموا بدراسات كثيرة قيمة فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية ، وخاصة فى ميدان التاريخ الاسلامى • واستطاع هؤلاء العلماء والمؤرخون العرب أن يسدوا الفراغات التى كانت قائمة ، والتى كان يسدها من قبل المستشرقون •

وصاحب هذه النهضة الفكرية والعلمية فى العالم العربى ، يقظة قومية ووطنية ، فقد بدأت الدول العربية منذ مطلع القرن

---

(١) أحمد امين : يوم الاسلام ص ١١٣ (القاهرة ١٩٥٨) •

العشرين تكافح الحكم العثمانى ، ثم بدأت بعد الحرب العالمية الثانية تناضل الاستعمار الأوروبى المختفى وراء ستار الانتداب • وكانت رغبة العرب فى الاستقلال والتحرر دافعة لهم على النهوض بأحوالهم الفكرية والثقافية • فقد كانت الدول الأوروبية تغزو العالم العربى عسكريا واقتصاديا وسياسيا وحضاريا أيضا • ورأى العرب أن النهضة الحضارية هى خير وسيلة للتحرر السياسى والاقتصادى ، حتى يستغنى العرب عما هو أجنبى •

وكانت كراهية العرب للأطماع الاستعمارية الأوروبية مما دفعهم أحيانا الى ابداء العداء للحضارة الاوروبية ، ولم تكن كراهية العرب أحيانا للأجانب لكونهم أجانب ، ولكن بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم • لقد ظن العرب فى مطلع القرن العشرين أن الدول الاوروبية ستساعدهم على التحرر من الحكم العثمانى والفوز بالاستقلال ، ولذلك ثار العرب ضد الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وانضموا الى الحلفاء • ولكن سرعان ما نسى هؤلاء الحلفاء وعودهم وبدأوا يرثون الدولة العثمانية ويقتسمون الأقطار العربية • وقاسى العرب الكثير من ظلم وفساد الادارة

الاستعمارية البريطانية والفرنسية • ورغم ذلك فقد وقفت العرب مرة أخرى الى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحلفاء كافأوا العرب بأن ضحوا بالمصـــالح العربية فى سـبيل الشرذمة الاسرائيلية الصهيونية • فلا عجب أن يكره العرب الأجانب ، أو يتخوفون منهم ، أو لا يثقون فيهم • وهذه الكراهية غالبا ما تنعكس على الحضارات الأجنبية ، وتجعل العرب ينظرون نظرة شك وريبة الى المستشرقين ، ويفسرون الاستشراق تفسيرات سياسية استعمارية •

نمت الحركات السياسية والوطنية المختلفة فى العالم العربى خوف العرب من كل شىء أجنبى ، سواء الأقطار أو الناس ، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الاوروبيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوروبى الذى يناضلونه ويناهضونه • ونتيجة لارتباط الحضارة الأوروبية بالحكم الاستعمارى المقيت، فقد أصبح العرب يبغضون كلمتى (استشراق) و (مستشرقين)

وظهـرت آراء كثيرة حول (الاستشراق) ، فبعض الآراء تذهب الى أنه يجب الفصل بين العلم والثقافة والحضارة وبين الجانب السياسى والأطماع الاستعمارية ولكن ترتفع أصوات أخرى تعارض هذا الرأى ، فقد مضى الاسـتشراق والاستعمار فى طريق واحد بحيث قد يصبح من العسير الفصـــل بينهما ،

والتمييز بين ما هو طيب أو خبيث • ورأى بعض آخر أنه يمكن تنقية أبحاث المستشرقين وكتبهم من الشوائب والاستفادة مما هو بعيد عن الدوافع الاستعمارية ، بحيث تكون الجهود النقية الخالصة التى بذلهـا المستشرقون صالحة ليقيم العرب على أساسـها أبحاثا جديدة قيمة ، وخاصة أن الحضارة والثقافة ذات طابع عالمى ، وهى تراث بشرى ، مملوك للأسرة الانسانية جمعاء ، وأنه من العسير أن يبـدأ المفكرون العرب من أول الطريق ، وأن يتجاهلوا جهود المستشرقين التى استمرت نحو قرنين • وغالى البعض فى تقدير قيمة أبحاث المستشرقين ، فقد بهرتهم الحضارة الأوروبية والامريكية ، ولذا دعوا العرب الى أن ينهلوا من مناهل هذه الحضارة، فيسيروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الأوروبيون والامريكيون حتى وصلوا الى هذه الحضارة الزاهرة •

هذه هى الآراء التى أثيرت فى العالم العربى • ويمكننا أن نقف منهـا موقفا وسطا • ونرد على من دعوا الى أن يساير العرب الدول الأوروبية والامريكية فى فكرها وحضارتها ، بأن الحضارة الاوروبية التى بهرت أنظارهم فى القرن العشرين انما قامت على أساس الحضارة العربية الزاهرة التى سادت طوال العصور الوسطى ، وقت أن كان ظلام الجهل والتأخر يخيم على القارة الأوروبية • وان هذا الاساس نفسه يصلح

لقيـــام حضـــارة عربية فى القرن العشرين قد تكون أعظـــم من الحضارات الأوروبية والامريكية •

ان الانغماس فى الحضارة الأوروبية يجعل الامة العـــربية (أمة شحاذة) وهذا لا نرضاه ، بل نأباه تماما • ان تركيا خير مثال لذلك ، فانها بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى انغمست فى الحضارتين الاوروبية والامريكية ، فقـــد كرهت تركيا أن يقال عنها أنها دولة آســـيوية ، وأرادت أن تكون قطعة من أوروبا ، وكأنها أرادت أن تغير تاريخها وجغرافيتها • وانحرفت تركيا الى التيار الأوروبى ، وأصبحت تعيش عالة على الحضارة الاوروبية • ونسيت تركيا أيام الدولة العثمانية المجيدة حينما كانت فى أوج قوتها ، تغزو وسط أوروبا ، وتحكم كثيرا من الدول الأوروبية ، وتمدها بالحضارة الاسلامية •

وانا ندعو العرب الى التمسك بالحضـــارة العربية ، التى عرف الأجانب قدرها فى المـــاضى فأقبلوا ينهلون منها واتخذوها أساسا أقاموا عليه صرح الحضارات الأوروبية والامريكية • فهى حضارات عربية عريقة ، متينة الاسس ، قوية البنيان • ولكننا لا ندعو ، فى نفس الوقت ، الى تجاهل تام للحضارات الأجنبية ، بل ندعو الى اقتباس ما لا يتعارض مع حضارتنـــا العربية وفكرنا العربى وقيمنا الروحية ومثلنا العليا واستقلالنا القومى • أى ندعو الى (الاقتباس) ، وننهى عن ســـياسة

(الانغماس) ، حتى لا تصبح الأمة العربية (أمة شحاذة) تعيش على تراث وأفكار غيرها من الأمم فحسب . وعلى العرب أن يتبعوا فى اقتباسهم مبدأ الحياد الايجابى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، أى نتمسك بمبدأ الحياد الحضارى .

واننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين ، ولا يمكن أن ننكر تماما فضلهم ، ولا يجوز لنا أيضا أن نستغنى على وجه الاطلاق عن دراسات المستشرقين فى أبحاثهم ، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربية فى موضوعات تاريخنا العربى والاسلامى وان القارىء المثقف ، والمطلع الفطن ، أو الباحث المتخصص ، يستطيع أن يقيم أبحاث المستشرقين تقييما حقيقيا صادقا ، كما يمكنه أن يميز بين الغث والسمين ، وبين وجوه الانصاف والاجحاف . وقد أصبح القارىء العربى المعاصر يستطيع أن يحكم على دراسات المستشرقين حكما سليما واقعيا ، وخاصة بعد ظهور كثير من الأبحاث التى قدمها لنا علماء وأساتذة عرب متخصصون ، مما أوجد مجالا لعقد دراسات مقارنة بين اتجاهات المستشرقين وآراء المفكرين العرب .

مستقبل الاستشراق :

لقد تغيرت صور الاستشراق فى تاريخنا المعاصر ، عما كانت عليه فى مطلع القرن العشرين ، أو فى القرن التاسع عشر

أو فى العصور الوسيطة • نتيجة تغير الأوضاع السياسية فى الشرق العربى ، ونتيجة النهضة القومية ، واليقظة الفكرية التى نشهدها اليوم فى العالم العربى ، ونتيجة تطور العلاقات السياسية بين الدول العربية والدول الأوروبية والامريكية •

أصبح الاستشراق فى السنوات الاخيرة يعيش فى دائرة محدودة ضيقة ، بعد السيول الجارفة من أبحاث المستشرقين التى شهدناها فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • وأصبح الاستشراق الآن يعيش فى البيئات الأوروبية ، بعد أن أغلق الشرق العربى أبوابه فى وجه المستشرقين •

حينما كانت الدول العربية فىمطلع القرن العشرين تحت انتداب الدول الأوروبية كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها أمام المستشرقين ، يصولون ويجولون فى حرية تامة ، وكانت دول الانتداب تتحكم فى توجيه الثقافة وتخطيط وسائل التربية والتعليم •وتمتع المستشرقون بحرية تامة فى التجول بين مكتبات الشرق العربى ، يسطون أحيانا على مخطوطاتها ، أو يصوروها وينسخوها حسب رغبتهم ، وينبشون الآثار القديمة فى الأراضى العربية ، ويسلبون معظمها ليملأوا بها المتاحف الاوروبية • وكان العرب لا يزالون فى مطلع القرن العشرين فى أول طريق الحضارة والثقافة ، مما يجعلهم فى حاجة الى تلك البضاعة الأجنبية المستوردة التى يقدمها لهم

المستشرقون • وكان كثير من المستشرقين يظهـرون فى ثوب البراءة • ويؤكدون حسن نواياهم ، وأنهم انما يريدون الكشف عن التراث العربى والاسلامى ، ودراسته تبعا للمنهج العلمى الحديث ، خدمة للعرب والمسلمين ، وخدمة للعلم والحضارة فحسب •

وكان العرب اذا أرادوا الاطلاع على التراث العربى لا يجدوا أمامهم الا ما نشره وحققه المستشرقون • حتى أصبح الميدان مقصورا على أبحاث هؤلاء المستشرقين • ثم تغيرت الأوضاع سريعا ، فقـد بدأت نهضة فكرية وعلميـة فى أرجاء الشرق العربى ، وظهر من بين العرب علماء أفذاذ متخصصون فى سائر فروع المعرفة، وقاموا بنشر وتحقيق أمهـات الكتب العربية القديمة ، كما قدموا لنا أبحاثا قيمة فى مختلف المجالات ، وخاصة فى التاريخ الاسلامى ، قد تكون أكثر عمقا وفهما وقيمة من أبحاث المستشرقين ، نتيجة اجادة العلماء العرب للغة العربية ، وحياتهم المستمرة فى الأرض العربية والاجواء الاسلامية •

وفى نفس الوقت ، بدأ استقلال الدول العربية سياسيا ، كما بدأ تحررها الفـكرى والحضارى أيضـا ، ولم يعـد المستشرقون يجدون تلك الحرية القديمة التى مارسوها طويلا ، كما أصـبح العرب على وعى قومى وفكرى ، فباتوا ينظرون أحيانا نظرة شك أو حذر الى أبحاث المستشرقين • ولذا بدأ

انكماش الاستشراق ، ورأى المستشرقون أن يبحثوا لهم عن مجال نشاط وميدان آخر ، غير الميدان العربى •

ولذا اتجه المستشرقون الى الدول الافريقية والآسيوية ، غير العربية ، التى نالت اســتقلالها ، أو هى فى طريقها الى التحرر ، وقد رأى المستشرقون فى هذه الدول النــامية التى طــرحت رداء التخلف عنهــا ، مجالا جديدًا يصــولون فيه ويجولون ، بعد أن بارت تجارتهم فى الأسواق العربية ، فبدأ المستشرقون يوجهون اهتماماتهم الى الدراسات الافريقيــة والآســيوية ، وخاصة أن هذه الدول لا زالت فى أول طريق الحضارة ، ولا يتوفر لها من بين أبنائها من يقومون بهــذه الدراسات ، فهم لا يزالون فى حاجة الى عقول وأقلام تسد الفراغ الفكرى القائم ، وخاصة أن بعض هذه الدول الافريقية والآسيوية لا تزال ترتبط بروابط سياسية ، تختلف فى صورها ، بالدول الأوروبية التى كانت تستعمرها قديما •

وانحصر الاستشراق الآن فى الجامعات والمعاهد فى مختلف الدول الاوروبية والامريكية ، فتتبارى هذه الجامعات الأجنبية فى انشاء المعاهد التى تختص بالدراسات العربية والاسلامية ، وتقوم بتدريس اللغة العربية الى جانب لغات الشرق الأخرى ، كما تنشىء كراسى الاســتاذية فى الجامعات ، وتقدم بعض المنح العلمية لأبنــاء الشرق • وقد اتخذ الاستشراق الآن ،

صفة أكاديمية ، واصطبغ بصفة علمية ، وسار فى طريق علمى ، بعد انفصاله عن الطريق السياسى الاستعمارى . وقد يلتقيان أحيانا ويمضيان فى طريق واحد اذا دعت الحاجة أو حتمت الضرورات السياسية .

وهذه الدراسات التى يقوم بها المستشرقون الآن فى جامعاتهم الأوروبية والامريكية يقدمونها غالبا لمواطنيهم ، ولم يعد العرب والشرقيون يهتمون بها كثيرا ، فقد أغناهم العلماء والمفكرون العرب بأبحاثهم القيمة ، التى تبز غالبا أبحاث المستشرقين . وأصبحت الجامعات العربية تمنح (الدكتوراه) ، ولم تعد الدول العربية فى حاجة لارسال أبنائها لنيل هذه الدرجة العلمية من الخارج . ونلاحظ أن الكتب الأجنبية التى تتناول دراسات عربية واسلامية ، والتى وصلتنا أخيرا ، لا تتصف غالبا بالعمق والدسامة ، بل هى غالبا كتب سطحية خفيفة ، كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم ، لانها لا تفيد العرب ولا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولذا فاننا نقول أن مستقبل الاستشراق محدود ، وأن مجالاته تتكمش ، وقد أصبحت كفة الباحثين العرب هى الراجحة الآن . وأصبح العرب فى غير حاجة الى (فكر مستورد) ، وباتت المستشرقون يجترون جهودهم السالفة ، وانحصرت أبحاثهم الجديدة فى دوائر محددة .

الفصل الثالث
دوافع الاستشراق

عوامل اختلاف الدوافع :

ان الاستشراق حقيقة واقعة ، وقد شمل الاستشراق كثيرا من جوانب حضارتنا وفكرنا وثقافتنا العربية ، وتزخر مكتباتنا العربية والاسلامية بأبحاث عديدة للمستشرقين ، فى سائر فروع المعرفة ، وبلغات أجنبية عديدة ، ومعظمها مترجم الى اللغة العربية . ولا يزال كثير من البــاحثين يرجعون الى أبحاث المستشرقين فى دراساتهم وانتاجهم العلمى . ولا يزال الرأى فى الاستشراق موضع بحث وجدل ونقاش . ولم يصدر المفكرون العرب حكما نهائيا على نوايا المستشرقين ، ولم يقيموا جهودهم وأبحاثهم تقييما محددا .

واذا سلطنا الأضواء على الدوافع التى حدت بالمستشرقين للقيام بأبحاثهم ودراساتهم ، والظروف السياسية التى أحاطت بهؤلاء المستشرقين ، والدول التى ينتسب اليها المستشرقون ، والعلاقات القــائمة بين الدول العــربية والدول الأوروبية ، وأحوال العرب السياسية والحضارية والفكرية ، لأمكننا أن

نفهم طبيعة الاستشراق ، واتجاهاته ، ومراميه ، ثم نصدر حكما حقيقيا منصفا صادقا ، نقيم به الاستشراق وجهود المستشرقين •

والاستشراق هو نتيجة ، ولكن الدوافع تختلف كثيرا ، تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور التاريخية ، ولاختلاف العلاقات السياسية والدولية ، ولاختلاف البيئات الجغرافية ، وتنوع المستويات الحضارية • الى جانب الفروق الفردية ، فليس كل المستشرقين صنفا واحدا ، فهم يختلفون فى عقلياتهم ونفسياتهم وصفاتهم ، فكان هناك من المستشرقين من أبدى اعجابا واقبالا على حياة الشرق ، وتحمس للحضارة العربية تحمسا كبيرا ، وانعكست هذه الميول والاتجاهات فى كتاباته وأبحاثه • ومن المستشرقين من اتصف بالتعصب الأعمى ، ضد الاسلام أو العروبة أو الشرق ، فكانت كتاباته كلها سهاما مسمومة • ومنهم أيضا من أبدى اعجابه بالاسلام حتى انه اعتنقه وأخلص له ، وانعكس ذلك على أبحاثه ، فأقبل يخدم هذا الدين وحضارته ، بقلمه وفكره • ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التى ينتمى اليها ، فأصبحت أبحاثه هى صورة لاتجاهات هذه الدولة وأهدافها السياسية أو الاستعمارية • ومن المستشرقين من هم ضعاف النفوس ، فأصبحت أقلامهم مأجورة لساسة بلادهم ، أو للصهيونية العالمية • ولكن من

المستشرقين أيضـــا ، من اتصف بالتعمق العلمى ، والتفهــم الحقيقى ، والانصاف الواقعى ، ومنهم من كرس حياته ووقته وجهده للاستشراق ، يدرس العلم للعلم ، ويبحث عن الحقيقة أينما كانت •

ويمكننـــا أن نركز الدوافع التى دفعت بالمستشرقين الى الاستشراق ، فى ثلاثة دوافع رئيسية ، يتفرع منها دوافع ثانوية ، وهــذه الدوافع الرئيسية : دينية ، واستعمارية ، وعلميـــة •

ظهرت هذه الدوافع الدينية واضحة فى العصور الوسطى ، وبداية التاريخ الحديث • وقد تحدثنا فى الفصل السابق ، عند دراستنا لمراحل الاستشراق ، عن مرحلة الاستشراق فى العصور الوسطى ، التى اتصفت بالتعصب الدينى •

يرى (خودا بخش) [1] أن هذا التعصب الدينى كان ناتجا عن سيطرة الكنيسة على أهالى العصور الوسطى ، فقد أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاســـلام قد أصبح خطرا على المسيحية • وكان هــذا الشعور بالخطر ، هو بداية انطلاق الكنيسة الكاثوليكية المعادى للاسلام وما تبعه من استشراق •

---

(١) الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ٣٧ — ٣٨ •

نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح • واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيى العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور ، فاننا ندرك ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور •

وتحالف التعصب الدينى مع الجهل السائد فى العصور الوسطى ، على تشويه صور الاستشراق القائم فى هذه العصور • فقد أدى هذا الجهل الى أن الاسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحى ، كما ظل محمد فى الأدب الاوروبى شخصية غامضة • ويمكننا أن ننسب هذا الجهل بالاسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، الى قلة الفرص المتاحة للمسيحيين لدراسة حياة الرسول أو عقيدته ، اذ أن علاقات البيزنطيين فى ذلك الحين بالمسلمين كانت محدودة •

ولكن منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بدأت ترجمة معظم كتب العرب ، فى الفلسفة والطب والفلك والرياضيات ، الى اللغة اللاتينية • وهذا يدل على أن كثيرا من المسيحيين أصبحو يجيدون اللغة العربية • وفى مقدمة هؤلاء نجد (رايموند (Reymond) رئيس أساقفة توليدو ،

وحاكم مدينة كاستيل (١١٣٠ ــ ١١٥٠) الذى شكل هيئة من المترجمين ، تولى رئاستها وسماها (Dominican Gondeslavi)

والى جانب الدول البيزنطية ، فقد اتصلت أوروبا بالمسلمين عن طريق أسبانيا وخاصة مدينة توليدو ، وعن طريق صقلية ومملكة نابلى • ورغم أنه كان من السهل أن يعلم المسيحيون الكثير عن الاسلام ، الا أنهم ظلوا طوال العصور الوسطى يجهلون كل شيء عنه ، بل جهلوا اسم (محمد) فنراه فى أدب العصور الوسطى يكتب (Mophomet) أو (Baphomet) (Bofum). بل ظـل المسيحيون قرونا يعتقـدون أن محمـدا هو اله المسلمين !!! ومن سوء الحظ أيضا ، أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الأولية عن الاسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية ، ونحن نعلم مدى العداء التقليدى القديم بين العرب المسلمين والرومان البيزنطيين • وكان البيزنطيون يعتبرون الاسـلام خطرا على عقيـدتهم ولمـا كانت الدولة البيزنطية تشعر بعجزها عن مواجهة الدول الاسلامية فقد لجأت الى السلاح الدينى ، وهو تجريح العقيدة الاسـلامية •

ظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى كتب تناولت الاسلام

قد حفلت بالاتهامات والشتائم ، وكلها تتصف بالتهور والافتراءات الغريبة التى تدل على تفكير سقيم ، ولم تبذل محاولة جدية لفهم الاسلام أو دراسة حياة محمد • ومن هؤلاء المؤلفين المتعصبين (رايموند) أسقف (توليدو) الذى ترجم بعض المؤلفات العربية • ومنهم بيتر المعروف باسم : .(Peter the Venerable)

وقد حمل (بيتر) هذا لواء حملة نشيطة ضد الاسلام ، ولام المسيحيين على مهادنة الاسلام ، ووضع خطة لمحاربته • ورأى (بيتر) أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولهذا السبب ترجم القرآن الى اللاتينية • وتاريخ أول ترجمة يدعو الى الحديث عنها ، اذ أنه لا يجوز أن نصفها بأنها (ترجمة) على أى حال من الأحوال ، فان (روبرت) الذى تولى أمر الترجمة لم يقم بترجمة القرآن حرفيا ، بل قام بترجمة بعض المعانى العربية بقدر ما استطاع •

و (روبرت) هذا رجل انجليزى ، قام برحلات الى فرنسا وايطاليا والبلقان واليونان ، ورحل الى آسيا حيث تعلم اللغة العربية • وفى يوليو ١١٣٦ م استقر فى برشلونه ، ثم أصبح أرشيدوق (بامبلونا) • ثم قام (بيتر) بتكليف (روبرت) بترجمة عدة كتب عربية الى اللغة اللاتينية ، وهى تضم دراسة

لحيـاة محمد وتاريخ الخلفاء الى عهد يزيد الأول ومصرع الحسين ، كما ترجم القرآن أيضا وانتهى من ترجمته سنة ١١٤٣

فتحت مؤلفات (بيتر) عهدا جديدا للصراع الدينى الموجه ضد الاسلام ، فقد كانت مؤلفاته هى المنبع الذى استقى منه كتاب العصور الوسـطى ، ولذا ظهرت حملات كثيرة ضـد الاسلام فى كتب ألفت بمعظم اللغات الأوروبية ، بل ان بعض الكتاب جعلوا حمـلاتهم المعادية لمحمد وعقيـدته على شكل قصائد شعرية، فبينماكتب (Walter of Sens) حياة محمد باللغة اللاتينية ، نظمها (Alexander du Pont) بالشعر الفرنسى • وانتشرت الترجمة التى قام بها روبرت للقرآن انتشارا واسعا طوال العصور الوسطى • كما اتخذت الحملات الموجهة ضد الاسلام أحيانا صورة جدل ونقاش بين رجال الدين المسيحى والاسلام ، وقد يكون هذا الجدال حقيقيا أو خياليا[١] •

ومن أشهر المستشرقين المتعصبين فى العصور الوسطى ، الذين أساءوا الى الاسلام والرسول (جيبرت أوف نوجنت (Guibert of Nogent) الذى كتب عن حياة الرسول ، فكانت كل كتاباته مجموعة من الأساطير الخرافية ، التى ابتدعهـا أو نقلهـا عن غيره من المغرضـين • ومن هؤلاء المستشرقين

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ٤٦ ـ ٤٩

المتعصبين أيضا (هيلد برت) أسقف (ليمونز) ورئيس أساقف تور فى سنة ١١٣٣ م ، فقد كتب تاريخا للرسول هو مجموعة من الخرافات والافتراءات ٠ وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر كتب (والتر) شعرا عن ظهور الاسلام كما رواه له أحد المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام حديثا ٠ وأبرز الجوانب التى تعرض لها هؤلاء الثلاثة فى حياة الرسول قصته مع الراهب بحيرى الذى التقى به خلال رحلة الرسول الى الشام فى قافلة عمه أبى طالب ٠ وذكر هؤلاء المستشرقون الثلاثة قصصا خيالية بعيدة تماما عن الواقع التاريخى ، فنذكر على سبيل المثال ما ذكره (والتر) من أن الرسول قاد جماعة من أتباعه لغزو أراضى الدولة الفارسية ٠

ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين الذين شهدتهم العصور الوسطى أيضا ، (أندريا داندولو) الذى ردد ما ذكره الثلاثة السابق الاشارة اليهم ، وأضاف عليهما كثيرا من خياله المغرض ٠ ثم يأتى دور (توسكان توماس) الذى كتب فى سنة ١٢٧٨ مجموعة من الأساطير الخرافية وزعم أنه استمدها من كتاب قديم نادر عثر عليه فى (بولونا) ٠ ثم يأتى دور أمير (بوفيه) الذى ألف كتابا عن الرسول أيضا أساء اليه فيه أساءات بالغة [1] ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

هذه الكتب التى وضعها مستشرقون متعصبون مغرضون ؛ هى فى الحقيقة صورة لأحقادهم على الاسلام والمسلمين ، فقد رأوا بكتاباتهم أن ينفسوا عن هذه الأحقاد بعد أن عجزت الدول المسيحية عن وقف تيـارات الفتوحات الاسلامية وانتشـار الحضارة العربية فى القارة الأوروبية نفسها • وهـذه الكتب أيضا لا تتبع منهجا علميا ، وليست قائمة على دراسة عميقة ؛ بل هى مجموعة خرافات وافتراءات واساءات ، تأخذ الصورة القصصية والأسطورية التى ربما تثير حب استطلاع الاوروبى ، وتجعله يقبل على قراءتها •

وانصافا للحق ، نقول أنه قامت فى العصور الوسطى حركة مضادة لهذه الحركة المتعصبة المغرضة • فقد ظهـر من بين الأوروبيين نفر منصفون أبدوا سخطهم على حملة الافتراءات والاساءات ، وقدموا لمواطنيهم كتبا تنصف الاسلام والرسول وتحاول أن تزيل الشبهات التى أثارها الآخرون ، ولكن هـذه الكتب المنصفة أيضا لم تتبع منهجا علميا ثابتا ، ولم تخل أيضا من بعض الأساطير •

ومن هؤلاء المستشرقين (وليم William of Tripoli) الذى امتدح الاسلام وأثنى عليه ، واجتهد فى فهم حقيقة العقيـدة الاسلامية وحياة الرسول ، وحينما نقرأ كتابه نشعر أننـا نتنفس هواء نقيا ، فنظرته بعيدة عن التعصب ، وحكمه ليس

نتيجة فكرة خادعة • وقد أشاد (وليام) بصحابة الرسول ، وذكر كثيرا من أسمائهم ، كما دون صورة واضحة نقية لعهد ظهور الاســلام • كما تحدث (وليــام) عن نزول الوحى والقرآن ، وقد اهتم بالآيات القرآنية التى تتشابه فى تعليماتها مع تعاليم المسيحية ، ثم اهتم بالسور التى تبين نظرة المسلمين الى الله عز وجل • فذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق العالم ، كما يجلون المسيح باعتباره نبيا كما يحترمون العذراء مريم • وذكر (وليام) أنه أمضى بعض الوقت بين المسلمين ، وأنه بعد أن عاشرهم يمكنه أن يعترف أن الاسلام قد أثر على المؤمنين به فهذب أخلاقهم ، وذكر أن الجانب المشرق للاسلام لا يتضح الا لمن عاش بين المســلمين ، وعرف الأمــور على حقيقتها ، وحينئذ يكف عن تحريض المسيحيين ضد المسلمين •

ومن هؤلاء المستشرقين الذين بعدوا عن التعصب ، (ثيتمار) الذى امتــدح الرسول كثيرا لأنه حث أصحابه على الرحمة وانكار الذات ، والعطف على الفقراء والضعفاء • ومنهم أيضا (أوتو Otto of Freising) الذى برأ الاسلام مما اتهمه به الكتاب المسيحيون من مظاهر الوثنية ، وأكد فى عزم أن الاسلام دين التوحيد وأنه يعترف بالمسيحية وسائر الرسل •

ومن أبرز هؤلاء الكتاب المنصفين الواعظ (نيكلدوس أوفة مونت كريستو) الذى عاش فى أواخر القرن ١٣ وفى مطلع

القرن ١٤ ، فقد كان أكثر عدلا وانصافا من معاصريه ، فقـد أمضى سبع سـنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وتحدث عما حث الاسلام عليه من فضائل ، بل ذهب بعيدا حتى أنه طلب من اخوانه فى المسيحية أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم • وأبدى اعجـابه بدراسة القرآن فى مدارس بغداد ، وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقى الابل فى الصحراء ، الذين لم ينسوا حتى فى أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة ، ولاحظ أن كثيرا من المسلمين يقبلون على أداء الصلاة فى شغف وتلهف • وأبدى (نيكلدوس) اعجابه بالوضوء الذى يسبق الصلاة • كما أبدى اعجابه بحب المسلمين للاحسان والتصدق ، وقد لاحظ انتشار المؤسسات الخيرية ، وأثنى على نظام الزكاة الذى فرض من أجل مساعدة الفقراء ، وأبدى اعجابه أيضا بنظام تخصيص خمس الغنائم من أجل أغراض الاحسان ، كما أن الأغنيـاء كانوا يوقفون أمـلاكهم من أجل أغراض الخـير ، كما كانوا يتصدقون بالفدية التى كان يدفعها الأسرى للمسلمين مقابل اطلاق سراحهم ، وأبدى اعجابه بشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات ، وأظهر مدى اجلال المسلمين لربهم ، حتى انهم يبدأون جميع كتاباتهم بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، كما أنهم يخلعون أحذيتهم قبل دخولهم الى المسجد • وأشاد

بكرم المسلمين وحسن ضيافتهم ، وذكر أن كل من أكل ملحهم فقد أصبح فى حمايتهم .

ورغم هـذا الصدق ، وهذا التفـكير السليم الذى أبداه (نيكلدوس) الا أنه كان أحيانا يحذو حذو معاصريه أحيانا ، ولكن الأخطاء التى وقع فيها لا تنقص كثيرا من قيمة كتاباته فنظرته العامة الى الاسلام منصفة ومن المسائل التى انتقدها (نيكلدوس) ما جاء فى القرآن عن انشقاق القمر ، كما انتقد نظام المواريث الاسلامى ووصف القرآن لنعيم الجنة[1] .

ثم دخل الاستشراق المصطبغ بصبغة دينية فى دور جديد ، أكثر تنظيما واتساعا ، وقام الفاتيكان بحمل لواء هذه الخطوة الجديدة ، واشترك فيها البابوات والأساقفة والرهبان ، الذين استـفادوا من نفوذهم لدى الملوك والأمراء . وكان رجال الدين ، ومرجعهم الفاتيكان يومئذ ، يؤلفون الطبقة العاملة فى أوروبا ، ولا سبيل لهم الى ارساء نهضتها الا على أساس من التراث الانسانى الذى تمثلته الثقـافة العربية ، فتعلموا العربية ، ثم اليونانية ، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها اليه ، ولتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم ، فى البـلاد التى أجلاهم

---

(١) خوذابخش : الحضارة الاسلامية ص ٥٩ — ٦٢ .

الاسلام عنها ، ثم لتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربية للقيام على خدمة الحجاج من أصقاع العالم الى الأراضى المقدسة والعناية بعابرى السبيل • ثم لتحقيق الكتاب المقدس • وقرر الفاتيكان تعليم اللغة العربية ، الى جانب اليونانية والدراسات الشرقية ، فى مدارس أسبانيا ، ومدارس الأديرة والكاتدرائيات • وانشاء كراسى للغة العربية فى جامعـــات روما وباريس وأكسفورد وبولونيا وغيرها • وتم تكليف هؤلاء الأساتذة بترجمة الكتب العــربية الى اللاتينية ترجمة علمية دقيقة • واســتعانوا فى الترجمة بمن يجيد العربية من النصارى والمسلمين واليهود ، فكانوا يترجمون ترجمة حرفية ، ثم يقوم رجال الدين بالصياغة فى أسلوب لاتينى متين • ولمـــا كان الشرق أسبق فى الحضارة من أوروبا بنحو ثلاثة قرون ، فقد تفوقت اللغة العربية على سائر اللغات ، لأنها لغة العلم ، ولغة الفــلاسفة كابن رشد وابن سينا وغيرهما[1] •

ومن أشهر المستشرقين من رجال الدين فى العصور الوسطى، (جربر دى أورالياك ٩٣٨ — ١٠٠٣) ، وكان فى أول أمره من الرهبان البندكتيين ، ثم قصد الأندلس وأخذ عن أساتذتها، حتى أصـــبح من أبرز علماء عصره فى الدراسات العـــربية والرياضيات والفلك ، وحينما رحل الى روما أصبح أول بابا

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١١٤ — ١١٦ .

فرنسى باسم (سلفستر الثـانى ٩٩ ــ ١٠٠٣) ، وقد أمر بانشاء مدرستين عربيتين فى روما • (رايمس) ، وهو الذى أدخل الاعداد العربية فى أوروبا • ومن هؤلاء المستشرقين أيضا (قسطنطين الافريقى المتوفى عام ١٠٨٧) ، وقد ولد فى قرطاجنة ، ورحل الى خراسان وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند ، وترهب فى دير مونتى كاسـينو وترجم كتب الطب والفلك من العـربية الى اللاتينية • ومنهم أيضـا الراهب الأيرلندى (ديكويل) الذى زار مصر ووصف أهراماتهـا • ومنهم أيضا الراهب البندكتى (أدلرد أوف باث ١٠٧٠ ــ ١١٣٥) الذى درس فى تور والأندلس وصقلية وآثر مذهب العرب فى العلم على مذهب الفرنجة ، وترجم كثيرا من الكتب العربية • ومن هؤلاء المستشرقين البارزين (بطرس المكرم ١٠٩٤ ــ ١١٥٦) وهو راهب فرنسى أصبح رئيسا لدير كلونى الذى أصبح مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية • وهناك أسماء كثيرة ساهمت فى حركة الاستشراق ، ونقل التراث العربى الى القارة الأوروبية [١] •

وكانت الحروب الصليبية هى المنبع الدفين الذى انبثق منه سيل الاستشراق ، فقد كانت هذه الحروب فرصة لاتصـال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخا

---

(١) المصدر السابق •

طويلا ، فكان لابد للغرب المعتدى من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبداد به ، ومن أهم الوسائل الموصلة الى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخـــرى .

كما أن هـــذه الحروب قد أطلعت الغربيين — عن طريق الاتصال بالشرق من جهة ، والمقارنة بين الاسلام ودينهم من جهة أخرى — على مواطن فى دينهم ، تحتاج الى مراجعـــة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة (الاصلاح الدينى) وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العـــبرانية ، ثم انتقـــلوا الى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية فى التبشير بالمسيحية فى الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، ولتكون تلك الدراسة معوانا على النجاح فى هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق . ولذلك نجد بداية الاستشراق تنشـــأ على أيدى الرهبان من المبشرين الغربيين ، كما نجد التعاون الوثيق بين هؤلاء وبين رجال الاستعمار[1] .

---

(١) دكتور احمـــد الشرباصى : التصوف عنـــد المستشرقين ص ٨٠٧ .

أثرت الحروب الصليبية فى القارة الأوروبية ، اذ أدت الى اضعاف النظام الاقطاعى ، وهو النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أعطى المجتمع الأوروبى الغربى طابعه فى هذا العصر • ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحا كذلك فى الميدان الاقتصـــادى ، اذ ساعدت تلك الحروب على احداث تطور ملموس فى النظم المالية فى غرب أوروبا ، هذا الى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، مما أدى الى نتائج خطيرة فى غرب أوروبا ، منها ازدياد نفوذ المدن وقوتهـــا ، واتساع نطاق النشاط المصرفى ، وتحسين طرق التجارة ، ونشاط الطرق البحرية • كما أن الحروب الصليبية أتاحت فرصا كثيرة للاتصال الحضارى بين الغرب الأوروبى والشرق العربى ، مما أدى الى انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية الى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين[1] •

ثم دخلت أوروبا فى عصور النهضة ، وحدثت تطورات محلية كثيرة ، أدت الى تطوير لحـــركة الاستشراق • فقـــد تميز الاستشراق فى العصور الوسطى غالبا بطابع دينى ، وكان معظم المستشرقين من رجال الدين المسيحى ، الذين كان لهم النفوذ الأغلب فى أوروبا ، وكانت السياسة والدين فى القـــارة الاوروبية يمضيان فى طريق واحد • ثم بدأ الانفصال بين الدين

---

(١) دكتور سعيد عاشور : اضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦ •

أدت الحروب الصليبية الى تطور واضح فى حركة الاستشراق بدوافع دينيـــة • وقد أقبل بعض الصليبيين ، بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم ، على اعتناق الاسلام • فكتب المستشرق توماس أرنولد) [1] تحت عنوان « حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين » : الى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التى وصفت بأنها قد دخلت فى نطاق تأثير الحكم الاسلامى عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخـــارجة عن الدين التى تفرعت عنهـــا • ولكن بانتهـــاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم الى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهـــائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا فى مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التى أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهـــددة قرابة قرنين من الزمان • وفى غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات الى الاسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء •

أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الاسلام ، فقد تأثروا بالأخلاق والطباع الاسلامية ، ونهلوا منها الكثير • فقد كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهـــادنات والسلام على غاية التسامح وحسن المعاملة ، مع أن الصليبيين باقرار مؤرخيهم

---

(1) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٠٨ •

كانوا مثــال الخشونة فى الطباع • وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم ، الى أن قلد الصليبيون المسلمين فى لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلم اللغة العربية وأجادها ، وجروا على منوال المسلمين فى كثير من شئون حياتهم •

تحدث المستشرق (توماس أرنولد) [1] عن أثر الاســلام والمسلمين فى أفكار الصليبيين وأخلاقهم ، فقال : ان زيادة اختــلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضــائل خصومهم تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن ، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم وأساليب حياتهم مما أثر فى الافكار الدينية ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمح الذى سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الاســلامية • بل ان علماء اللاهوت المسيحى حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا الى تكوين رأى أكثر انصافا عن ديانة المسلمين ، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن ينجذب الكثيرون الى حظيرة الاسلام ، وكان عدد المرتدين عن المسيحية فى القرن الثانى عشر الميلادى كثيرا كثرة نلاحظها فى سجلات الصليبيين القانونية التى يطلق عليها (مجالس قضاء بيت المقدس) •

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١١٠ •

والسياسة فى أوروبا ، وكان لهذا أثره فى حركة الاستشراق ، وبدأت الدوافع الدينية للاستشراق تتكمش قليلا .

فقد أدى النزاع فى الغرب المسيحى بين السلطتين الدينية والزمنية ، أى بين الكنيسة والدولة ، الى الفصل بينهما ، والى اقامة سلطان الدولة على انكار سلطان الكنيسة . وكان لهذا التنازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى كله . وفى مقدمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الانسانى والعقل الانسانى ، وبين منطق العقل المجرد ومقررات العلم الواقعى المستندة الى الملاحظة المادية . وكان لانتصار التفكير المادى أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساسا رئيسيا للحضارة الغربية . فقد نشأ من ذلك أن قامت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل ما فى هذا العالم خاضعا لحياة هذا العالم الاقتصادى كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الانسانية فى أديانها وفنها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مد أو جزر اقتصادى فى مسألة أممها المختلفة. أما المسألة الروحية فهى فى نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة . هذا بينما تقوم الحضارة الاسلامية على أساس روحى ، والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى والخلقى[1] .

---

(1) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٠٠ (طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩) .

وفى العصر الحديث ، ظهرت دوافع أخرى للاستشراق ، منها الدوافع الاستعمارية ، والدوافع العلمية البحتة المخلصة . وقد انكمشت الدوافع الدينية وتضاءلت ، ولكنها لم تنعدم . وجوهر كتاباتهم أن الاسلام هو المسئول عما أصاب العالم الاسلامى فى العصور الحديثة من تأخر حضارى ، بينما كانت المسيحية هى سبب ما شهدته أوروبا من نهضة حضارية . وهؤلاء المستشرقين المبشرين ، يدعون المسلمين الى أن يفصلوا حياتهم الدينية عن حياتهم الدنيوية .

ومن هؤلاء المستشرقين المبشرين المحدثين ، نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الاسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون الى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الاسلامية والعلوم الغربية ، ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والاسلامية ، وبالتالى الى ابراز نواحى النشاط الثقافى للغرب ، وتفضيلها على أمثالها فى تاريخ العرب والاسلام ، وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحى ، وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية[1] .

---

(1) انظر كتاب (التبشير والاستعمار) تجد كثيرا من التفصيلات عن هؤلاء المستشرقين المبشرين .

ويولع المستشرقون بتتبع اللهجات العامية فى البلاد العربية الاسلامية ودراستها والتنويه بها ، وهم يقصدون من ذلك أن يمكنوا لها حتى تطغى على اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم، ولغة القومية العربية الموحدة، وتراهم يولعون بتناول مواطن خاصة ينالون فيها من الاسلام ويعرضون به كما يولعون بتتبع الأساطير والقصص التى لا تثبت صحتها ، ليبنوا منهـا أحكاما كلها أوهام وخيـالات واسراف فى اصدار النتـائج والأحـكام .

ويحاول هؤلاء المستشرقين دائما تصوير الاسلام فى صورة الدين الجامد الذى لا يصلح للتطور أو التجديد ، ومن كيدهم فى هذا الباب أنهم يحكمون دائما على الاسـلام من واقع المسلمين ، فهم لا يصورون الاسلام من منابعه ومصادره ، بل يصـورونه من واقع المسلمين السيء . وهم بطبيعة الحال يختارون البيئات الاسلامية التى نالها الضعف أو الهذال لهذا السبب أو ذاك ، ويجعلون هـذه البيئات الضعيفة نموذجا للاسـلام [1] .

أصبحت كتابة هؤلاء المستشرقين تدور حول أن أوروبا هى سيدة العالم ، وعلى أن رجلها الأبيض هو المسئول عن الاسود والاصفر ، وأن الله خلق العالم قسمين : قسما أوروبيا ساميا ،

---

(١) دكتور أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١٠

وقســم غير أوروبى منحطا ، ومن أجل ذلك يؤرخون أوروبا بأنها المركز وما حولها نقط على المحيط ، واذا جازوا للتاريخ الاسلامى اقتضبوه أو حرفوه [١] .

وخير ما يصور محاولة بعض المستشرقين من أن يلصقوا بالاسلام كل تأخر حضارى أصاب العالم الاسلامى ، كتاب (الاسلام فى التاريخ الحديث) للمستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتوبل سميث) الذى كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكندا [٢] . فهو يقول فى كتابه : للاسلام فى العصر الحديث مشكلة وأزمة ، فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع فى تاريخهم ، فانحرف به عن طريقه السوى ، وأن ثمة مفارقة بين الدين الذى أنزله الله وبين التطور التاريخى للعالم الذى يسيطر عليه ويصرف أموره ، وانهم يفكرون فى كيفية تقويم ما اعوج من تاريخهم حتى يعاود سيره من جديد فى كامل قوته [٣] .

ثم يقول (سميث) : واذن فالمــأزق الاسلامى ازاء العصرية يحسه المثقفون بعمق ، فقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ بدت الحاجة الى الدفاع عن العقيدة ضــد الضغط الخارجى

---

(١) أحمد أمين : يوم الاسلام ص ١٧٢ .

(٢) قضى المؤلف هذا الكتاب عاما فى هذا المعهد كأستاذ زائر فى عام ١٩٦٣ — ١٩٦٤ .

(٣) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٢٣ .

والتأخر الداخلى . واليوم وبرغم التقدم فى نواح كثيرة نرى الهجوم على الاسلام أكثر شدة ، نرى هجوما من الخارج ، ومن الداخل ليس هجوما من اعدائه الاجانب الخارجيين بل كذلك هجوما على الظاهرة التاريخية للاسلام كحقيقة واقعة وعلى القوة الداخلية لحقه الجوهرى [1] .

ويمتدح (سميث) الأتراك المحدثين لانهم تخلوا عن الحضارة العربية الاسلامية وأقلبوا على الاخذ بالحضارة الاوروبية ، فهو يقول عنهم : يعنينـا موقف تركيا من التصـدى للدين الاسلامى ، فالأتراك لم يرتدوا عن دينهم ولم يهجروه ، وانما أخذوا يعيدون النظر فيه ، معيدين بحثه من جديد ... ان الأتراك هم الشعب المسـلم الوحيـد الذى أدرك على وجه التحديد ما يحتاج اليه ، وهم الشعب المسلم الوحيد أيضا الذى استطاع أن يشكل أسسه الفكرية والاجتماعية بشكل يتناسب مع أوضاع المدنية الحديثة ، وقد سبق أن قدمنا أن الاسلام يعنى كثيرا بالتاريخ ، وأن الشق التركى من التاريخ الاسلامى هو الشق الوحيد فى المرحلة المعاصرة ، الذى يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أدنى ارتياب ، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الاسلامية الذى يستطيع أن يطمئن الى أن مشاركته فى التاريخ الاسلامى الحديث كانت ذات أثر فعال [2] .

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٠ — ٥١ .

الدوافع الاستعمارية :

يفضل بعض المفكرين استخدام لفظ (التسلط) بدلا من (الاستعمار) ، ويعرفونه بأنه « تحكم شعب فى غيره من الشعوب » ، وأداة هذا التسلط المال والقوة ، ومسوغاته ما يزعمون من وجود حق للقوى على الضعيف . ويكون التسلط مقرونا ، فى معظم حالاته ، بالظلم والطغيان والقسوة [1] .

والتسلط أشكال أهمها ثلاثة : سياسى ، ودينى ثقافى ، واقتصادى أما التسلط السياسى فهو أن يبسط شعب سلطانه على شعب آخر بالحرب أو المعاهدات ، ابتغاء للنفوذ السياسى والمجد والعظمة واستخدام الشعوب المحكومة جنودا فى الحروب ، وأمثال ذلك من الأغراض السياسية ، وقد يكون هذا التسلط منبعثا عن الاعتقاد بفلسفة القوة واللذة ، أى فلسفة هيجل ونتشه ولارو شفوكولد وغيرهم ، ممن يدينون بضرورة معاونة الطبيعة على افناء الضعيف ، وعلى تسليط الأصلح للبقاء . وهذه الفلسفة لا تقيم وزنا الا للقوة ، وتجعل الحق خاضعا لها . وكثير من الدول الأوروبية الاستعمارية يسيرها مستعمرون يدينون بفلسفة القوة واللذة ، وكل منهم يعتقد

---

(١) الامير مصطفى الشهابى : الاستعمار ج ١ ص ٢٥ (من مطبوعات معهد الدراسات العربية) .

أن شعبه هو أرقى الشعوب وأصلحها ، ولهذا وجب على حكومته أن تتسلط وتستعمر ، كما وجب على الشعوب الضعيفة أن تخضع . وهذه الفلسفة لا تجيزها الأديان أو الاخلاق .

أما التسلط الديني والثقافي فهو بسط شعب سلطانه السياسي على شعب آخر بالحرب أو بغير الحرب لغاية دينية أو ثقافية . فأما الحروب الدينية فمعروفة ، وأما الحرب التي ترمي الى بث فكرة ثقافية فمثالها الحرب التي أثارها رجال الثورة الفرنسية على هولندة وسويسرا وبلجيكا وايطاليا باسم حرية الشعوب والخلاص من أصحاب التيجان ولكن الأوروبيين قلما يتشبثون بفكرة دينية أو ثقافية الا لغاية سياسية . مثل ادعاء الحكومة الفرنسية حينا حماية النصارى في الشرق ، واغداق فرنسا المال على مدارس اليسوعيين والعازريين والاخوان المريميين والكبوشيين وتشجيع المدارس اللاييك في البلاد العربية ، انما يرمي هذا كله الى تثقيف أبناء تلك البلاد بثقافة فرنسية بحتة ، وابعادهم عن الثقافة العربية ، حتى يظلوا على زعمهم حربا على بلادهم وعثرة في سبيل استقلالها وأداة لتسط فرنسا السياسي . وقد حاولت انجلترا حماية الأشوريين في العراق لغاية سياسية فلم تفلح . وما المدارس

والمستشفيات والرهبنيـــات الايطالية فى الشـــام الا أدوات سياســـية[1] •

أما التسلط أو الاستعمار الاقتصــــادى فهو بسط شعب سلطانه السياسى على شعب آخر بالقوة لغاية اقتصادية • وقد أدى الانقلاب الصـــناعى فى أوروبا الى حركة اســـتعمارية واسعة ، للاستيلاء على المواد الأولية فى المستعمرات ، وفتح أسواق جديدة ، وغير ذلك من الاهداف الاقتصادية الاستعمارية المعـــروفة •

بدأت الأطماع الاستعمارية الاوروبية فى العـــالم العربى والاسلامى ، منذ مطلع التاريخ الحديث ، حينما كان الشرق العربى خاضعا للحكم العثمانى • وسارت حركة الاستشراق مع هذه الحركة الاستعمارية فى طريق واحد • وكما غزت الدول الأوروبية الشرق الاسلامى بالسيف والحديد والنار ، فقد غزته أيضا حضاريا وفكريا • وبدأ صراع حضارى بين الحضارة الاسلامية والحضارة الأوروبية • وقد صور المرحوم الاستاذ أحمد أمين [2] هذا الصراع فقال : لم تقتصر غزو أوروبا على مسائل الحضارة المـــادية ، بل أيضا غزت الشرق بالأفكار والمعانى ، فقد اقتبس الشرقيون من الحضارة الأوروبية التعليم

---

(1) الشهابى : الاستعمار ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ •
(2) يوم الاسلام ص ١٥٨ — ١٥٩ •

وآراء الاوروبيين فى علم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وما الى ذلك ، واذا كان المسلمون من ذوى حضـــارة قديمة مأخوذة من حضارة العرب وما تتابع عليها من فرس وأتراك ونحوهما ، وما اقتبسوه من فلسفة يونانية ورومانية ، فقد اضطربت فى أذهانهم وحياتهم المـــادية الحضارة القديمة التى عاشوا عليها قرونا ، مع الحضارة الحديثة اضطرابا شديدا يختلف باختلاف الأمم والافراد فى الامة الواحدة • وكان اقتباس القسم المـــادى من الحضارة أكبر من اقتباس القسم المعنوى • واذا كان هذا الاضطراب حادا ، كان السير على المدنية الغربية سيرا أعوج •

أصاب الدولة العثمانية ضعف شديد ، وأدى ضعف السلطة المركزية فى العاصمة الآستانة الى تفكك الأطراف والولايات ، وتطلع بعض الحكام الى الاستقلال والى الثورة ضد الدولة العثمانية ، مستعينين بدول أجنبية • ففى أوائل القرن السابع عشر ثار الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى لبنان على الحكم العثمانى ، واستعان بامارات مسيحية مثل توسكانا ونابلى وأسبانيا والبابوية لتعينه على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهى دول كانت الروح الصليبية لا تزال مسيطرة على علاقتها بدول المسلمين • فعزمت الدول العثمانية على القضاء عليه ، ففر لاجئا الى حليفه أمير توسكانا ، ونجحت الدولة العثمانية

فى قتله سنة ١٦٣٥ ، ولكن اللبنانيين ما زالوا يعتبرون فخر الدين بطلا قوميا كبيرا ، اذ دافع عن كيان لبنان واستقلاله ، وسعى لدعم هذا الاستقلال بالاتصال ببعض الدول الأوروبية ، واقتباس بعض مظاهر الحضارة الاوروبية فى بلاده .

وفى مصر ، ثار (على بك الكبير) على الحكم العثمانى ، وتحالف مع الشيخ ظاهر أمير عكا العثمانى ، وتحالف الأميران مع الروسيا . وفى العراق ، اعتمد داود باشا مع الانجليز فى توطيد دعائم حكمه والثورة على العثمانيين (١٨١٧ — ١٨٣١) [١] .

وكانت الحماية الفرنسية على مصر والشام هى الصورة الايجابية العسكرية لبداية الأطماع الاستعمارية فى الشرق العربى . ونستطيع أن نقول انها أيضا بداية الاستشراق القائم على دوافع استعمارية . وقد قدم الفرنسيون مزودين بمدنيتهم الحديثة التى تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادىء الديموقراطية . وتقابلوا بهذا كله مع مدنية العثمانيين ، فكانت الغلبة للمدنية الحديثة . ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية الحضارة ، وأيقنوا أنه لا حياة لشعوب الشرق

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص ١٢٤ — ١٢٥ .

العـــربى الا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقـــاوم الغرب بأساليبه .

كانت الحملة الفرنسية أول مشروع رمى الى تكوين دولة شرقية من الأجزاء العربية التابعة للدولة العثمانية ، وقـــد استغل بونابرت مقومات العروبة فلجأ الى اللغة العربية فى كتابة منشوراته ولوائحه ، وطبع كتبا فى تعليم اللغة العربية وهجائها بالمطابع الفرنسية المرافقة للحملة ، وشجع العناصر العربية فى البلاد فكون منها دواوينه وجعلهم أهل مشورته .
بعد الفتح العثمانى للدول العربية الاسلامية ، اســـتأثر الأتراك بالحكم ، ولم يكتفوا بعدم اشتراك الشعوب العربية فى حكم بلادها ، بل انهم أقصوا العرب عن مناصب الحكومة تماما ، اذ كان نظرية الحكم التركى أن هناك طبقتين متميزتين : طبقة الحكام الأتراك ، وطبقة المحكومين أو الفلاحين . ثم جاء نابليون الى مصر وأعلن فكرة اشتراك الشعب فى الحكومة . وأنشأ نابليون ديوان القاهرة من العلماء وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة ، كما أنشأ دواوين الأقاليم . ولم يتنـــازل الشعب عن هذا الحق بعد جلاء الفرنسيين[1] .

كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) أول غزو أوروبى للشرق العربى ، وقـــد صحب معه عددا كبيرا من العلمـــاء

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية) ص ١٣٦ .

المتخصصين فى سائر فروع المعرفة ، فمنهم الأثريون المستشرقون والمهندسون والأطباء والمترجمون اللبنانيون والمصريون والسوريون ، من أمثال : ميخائيل صباغ (١٧٠٨ ١٨١٦) الذى اتصل بالمستشرقين (دى ساسى) و (كاترمير) وعمل فى المكتبة الوطنية بباريس ، والياس بقطر من مصر (١٧٤٨ — ١٨٢١) وهو أستاذ العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومصنف المعجم العربى الفرنسى ، ونقولا الترك (١٧٦٣ — ١٨٢٨) صاحب كتاب (حرب بونابرت مع النمسا) وغيرها من الكتب [1] . وروفائيل زخور (١٧٥٧ — ١٨٣١) المولود فى القاهرة وهو من أصل حلبى وكان يقوم بتعليم اللغة العربية فى باريس ثم جعله محمد على فيما بعد مديرا لمطبعة بولاق ، فمترجما فى مدرسة الطب .

وأمر نابليون بتأليف المجمع العلمى المصرى ، وتأسيس مطبعة عربية كان قد استصفاها من الفاتيكان لطبع تصريحاته وبلاغاته ومنشوراته . كما أصدر نابليون ثلاث صحف واحدة منها بالعربية ، وأنشأ مكتبة ومتحفا ومختبرا (معملا) ومصنعا ومرصدا ومسرحا ، فتحت أبوابها للمصريين . ونشر العلماء الفرنسيون بحوثهم ورسومهم وخرائطهم فى كتاب (وصفة

(٢) مثل تملك جمهور الفرنساوية (طبعة باريس ١٨٣٩) ، وتاريخ احمد باشا الجزار (مخطوط) وحوادث الزمان فى جبل لبنان (مخطوط) .

مصر) • كما حل (شامبليون) رموز الكتابة الهيروغلوفية بقراءته حجر رشيد (١٨٢٢) وألف لها أجرومية ومعجما (١٨٣٢) فوضع بذلك أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل الى العلماء للتنقيب عن عالم عظيم مفقود[١] •

ورغم جهود العلماء الفرنسيين ، الا أن موقف المصريين العدائى من الحملة الفرنسية قد غطى على هذه الجهود ، فقد قدم الفرنسيون الى الشرق العربى غازين فاتحين ، وكانوا مختلفين عن أهالى البلاد فى الدين والجنس واللغة ، ولذا ثارت الروح القومية فى مصر ، واستبسل فى الدفاع عن الوطن العربى • وقامت ثورتان عارمتان فى القاهرة كانتا من عوامل اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر •

ومن الطريف أن نابليون بونابرت ظهر أمام المصريين بصورة المستشرق ، فقد تظاهر باعتناق الاسلام ، وشارك المصريين احتفالاتهم الدينية وخاصة المولد النبوى الشريف ، وارتدى العمامة والجبة والقفطان ، وزار علماء الأزهر فى بيوتهم ، وتناول طعامه بيديه مثلهم • كما اعتنق (جاك مينو) القائد الفرنسى الاسلام ، وتزوج من مصرية ، ولكن هذه الوسائل لم تقنع المصريين واستمروا فى عدائهم للحملة الفرنسية •

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ •

وظهرت الروح الوطنية المصرية واضحة ، حتى أن المصريين أصبحوا يعملون على الاستقلال أيضا عن الدولة العثمانية .

وفى فترة حكم محمـــد على فى مصر ، توافد عدد كبير من المستشرقين ، فقد رأى محمد على تدعيم الجيش المصرى من أجل تحقيق سياسة تكوين دولة واسعة يحكمها طوال حياته ويتوارث أبناؤه الحكم فيها من بعده ، كما رأى محمد على أن ينشىء المعاهد والمدارس العليا من أجل مد الجيش بحاجاته من الأطباء والمهندسين والمهنيين وغير ذلك . واعتمد محمد على على خبراء أجانب أوروبيين فى تدريب الجيش ، وفى المعــاهد والمصــانع ، ولذا قدم الى مصر كثير من هؤلاء الخبراء ، واستشرق بعضهم ، وعاش طوال حياته فى مصر وتأثر بالحياة الشرقية .

ومن أشهر هؤلاء ، الدكتور كلوت بك الذى قام بانشـــاء مدرسة الطب فى مصر سنة ١٨٢٧ الذى اســتعان بكثير من الأساتذة الاوروبيين ، معظمهم من الفرنسيين ، ولكلوت بك كثير من المؤلفات الطبية القيمة ، وله فضله فى مكافحة الكوليرا فى سنة ١٨٣٠ والطاعون سنة ١٨٣٥ . ومن هؤلاء المستشرقين أيضا الكولونيل سيف ، وهو فرنسى الأصل ، وعهد اليه محمد

على بتنظيم الجيش المصرى على الاساليب الحديثة ، وقد أصبح اسمه (سليمان باشا الفرنساوى)[1] •

ورأى السلاطين العثمانيون أن يقووا قبضتهم على العالم العربى بحيث تظل الولايات العربية خاضعة للحكم العثمانى الى الأبد • واتبعوا فى سبيل ذلك وسيلتين : الاولى الاصلاح ، والثانية الدعوة الى الجامعة الاسلامية • وقد أثرت الوسيلتان فى حركة الاستشراق ، وأدت الى اتساعها ، والى تدفق المستشرقين على أقطار الشرق العربى •

بدأت حركات الاصلاح فى تركيا فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) واتجهت فى أول الامر نحو اصلاح الجيش بادخال النظم الأوروبية الحربية الحديثة ، ولكن الانكشارية وقفت عقبة فى سبيل الاصلاح وأرغموا السلطان على التنازل عن العرش • ثم تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء تماما على الانكشارية ، وكون جيشا قويا استطاع أن يقوم بأعمال حربية عظيمة فى قتاله الوهابيين فى نجد ، واليونانيين فى المورة ، ثم قتال محمد على • ثم أصدر خلفه وابنه السلطان عبد الحميد (١٨٣٩ — ١٨٦١) منشور (الكلخانة) وفيه يؤمن جميع رعايا الدولة العثمانية على

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٢ (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٧) •

اختلاف توصياتهم وأديانهم ، على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم • ثم أصدر السلطان عبد العزيز (التنظيمات الخيرية) •

وخلاصة الاصلاح : تنظيم التعليم ، وانشاء مدارس عالية ، وتنظيم القضاء ، وانشاء محاكم تجارية ومختلفة ، وتنظيم شئون التجنيد ، وتنظيم ميزانية الدولة ، والشئون الادارية ، وحددت اختصاصات الولاة وكبار الموظفين بحيث يرتبطون جميعا بالحكومة المركزية [1] •

اتسعت حركة الاستشراق ، واستعانت الدولة العثمانية بكثير من الخبراء الأجانب فى جميع الشئون • وارتبط الاستشراق بازدياد أطماع الدول الأوروبية فى الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الطوائف مما أضعف هيبة الدولة العثمانية ، وازدياد حركة الاستشراق • مثل أطماع الفرنسيين فى سوريا ولبنان وشمالى افريقية ، والانجليز فى مصر والسودان والعراق والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، والألمان فى استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والايطاليين فى ليبيا •

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص١٥٠.

رأى الأتراك أن الطريق الى الاصلاح هو توطيد نفوذهم فى الولايات العـــربية ، مستفيدين من الحضـــارة الأوروبية والخبراء الاجانب • بينما كان العرب يرون أن الاصلاح هو احيـــاء الروح الوطنية وبعث الروح القومى والتغنى بأمجاد العرب واحياء التراث العربى ، ولذا لم يرض الكثير من العرب من تدفق هؤلاء الخبراء والمستشرقين الأوروبيين على الشرق العـــــربى •

وفى خلال حركات الاصلاح ، لم تتوقف الدول الأوروبية عن مد نفوذها فى البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها • وكانت المدارس الأجنبية تؤسس فى المدن والقرى المسيحية فتجذب أبناء العرب غير المسلمين • وقد وجـــدت اللغة العربية موئلا فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين • وذلك لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا يرسلون أولادهم الى المدارس الحكومية ، ولغة التعليم فى هذه المدارس كانت اللغة التركية[1].

خابت آمال العـــرب فى حركات الاصـــلاح على الطريقة التركية ، مما أدى الى توتر العلاقات بين العرب والأتراك •

(١) المصدر السابق ص ١٥١ •

فرأى السلطان عبد الحميد أن يلجأ الى طريقة جـديدة تربط العرب بالأتراك ، وهى (الجامعة الاسلامية) •

ففى منتصف القرن التاسـع عشر تعرض العالم العـربى والاسلامى للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، واستولت الروسـيا على القوقاز ، وسـيطرت انجلترا على الهند ، وهولنده على أندونيسيا • وخاف المسلمون أن يسيطر الأوروبيون على العالم الاسلامى بجميعه ، ولذا فكر المسلمون فى جمـع كلمتهم للوقوف أمام التيـار الأوروبى الاستعمارى فنشأت فكرة الجامعة الاسلامية •

وساعد على ظهور فكرة الجامعة الاسلامية ، ظهور جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس التى قامت عليها فكرة الجامعة الاسلامية • وقد قامت دعوته على أساسين : أولهما اصـلاح حال المسـلمين وتلقينهم الحضارة الأوروبية الحديثة • وثانيهما تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، ولفت أنظار المسلمين الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر نتيجة عـدم مسايرتهم الحضارة الأوروبية الحديثة حتى طمع الاجانب فى بلادهم • ودعا جمال الدين المسلمين الى الاتحاد ليقفوا فى وجه الاستعمار •

وكانت زيادة الأطمـاع الأوروبية فى العـالم العـربى

والاسلامى عاملا هاما فى نجاح الجامعة الاسلامية • ورحب بالفكرة زعماء وطنيون مثل مصطفى كامل فى مصر ، كما ساعد على انتشارها تقدم طرق المواصلات ، ونهضة الصحافة • كما قامت العوامل الاقتصادية بدور كبير فى نجاح الجامعة الاسلامية • فقد كانت الأطماع الاقتصادية الاجنبية تسير جنبا الى جنب مع الاطماع السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار العربية والاسلامية رؤوس الاموال الاجنبية ، واستثمر الاجانب مرافقها ، وأدى الاستعمار الاقتصادى الى استعمار سياسى ، ورأى المسلمون أن الجامعة الاسلامية تخلصهم من الاستعماريين على السواء • ولكن سقوط السلطان عبد الحميد بعد عزله فى سنة ١٩٠٨ كان نذيرا بنهاية فكرة الجامعة الاسلامية[١] •

فقد خابت آمال أوروبا فى الشرق الأقصى • أى الصين واليابان — فاتجهت آمالها الاستعمارية الى الشرقين الأوسط والادنى ، فصوبت اليهما سهام الاستعمار • ثم نهض المسلمون فى بلادهم • وفشى الاستعمار الأوروبى نتائج هذه النهضة ، وعندئذ أصبح للجامعة الاسلامية معنيان : أحدهما فى أذهان المسلمين فى الشرق ، والثانى فى أذهان الأوروبيين فى الغرب •

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الاسلامية فى أذهان المسلمين

(١) انظر كتابنا (القومية العربية) ص ١٦٢ •

فهو النهوض ببلاد الاسلام نهوضا تستيقظ به من سباتها وتتخلص من النفوذ الأوروبى الذى كان عاملا حقيقيا فى تخلفها ، لا فى تقدمها كما زعم القوم • وأما المعنى الثانى لفكرة الجامعة الاسلامية فى نظر الأوروبيين فهو الخوف من أخطار الجامعة الاسلامية • فقد وجد المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لانقاذهم من براثن الاستعمار الأوروبى[1] •

اجتهد المرحوم الأستاذ أحمد أمين[2] فى تقييم الحضارة الاوروبية ودورها فى حضارة العالم الاسلامى ، فقال : كانت الحضارة الأوروبية ذات أثر تقدمى كبير فى العالم الاسلامى ، ولولاها لظل يرسف فى قيوده التى كان يرسف فيها ، ولكنها لا تخلو من عيوب ، فقد باعدت بينه وبين الحضارة الاسلامية القديمة ، ولم تكن ناتجة من نفس المسلمين كما كانت الحضارة الغربية ناتجة من نفس الغربيين ، بل هى دخيلة عليهم دخول الأجنبى بلادهم ، ومثلها مثل شجرة أريد تضخيمها بأوراق شجرة أخرى من الخارج لا بنموها الطبيعى من الداخل •

ان الحضارة الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها نشوءا طبيعيا متدرجا مجتازة الأدوار

---

(١) من مقال للدكتور عبد اللطيف حمزة بجريدة الاهرام بعنوان (الجامعة الاسلامية والجامعة العربية) •

(٢) يوم الاسلام ص ١٦٠ •

المختلفة على مقتضى سنة النشوء ، أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب يطفر فى تحوله طفورا اذ أن ما يأخذه عن الغرب ويقتبسه منه دفعة واحدة قد نقضت على تكامله عند الغربيين الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك •

ان حركة الاستشراق وصلت الى الشرق الغربى تحت دوى المدافع وصليل السيوف ، فاستقبلها المسلمون والعرب استقبالا سيئا ، فقد نظر المسلمون الى أفكار المستشرقين على أنها أفكار مسيحية ، لا على أنها أفكار أوروبية أو عالمية وكلما ازداد ضغط الدول الأوروبية على الشرق العربى ، وعامل الاوروبيون العرب والمسلمين معاملة سيئة ، واحتكروا مواردهم الاقتصادية ، زاد عداء العرب للمستشرقين وأفكارهم • وتأثرت حركة الاستشراق بالصدام الذى ظهر بين الشرق والغرب ، وبين الأطماع الاستعمارية الاوروبية ، والروح القومية العربية التى ترمى الى تحقيق الاستقلال والتحرر مما هو أجنبى •

الـدوافع العلميـة :

دخل المستشرقون ميدان تاريخ العرب والاسلام منذ اللحظة التى اتجهت فيها ميوله الى الكتابة عن الشرق لأغراض غير علمية أول الامر ، كما رأينا فى هذا الفصل . ثم استحالت حركة الاستشراق الى أغراض علمية بعد ذلك . واذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التى نعرفها ، والتى أذن الله لنـا أن نتحرر منها ، فان المستشرقين منهم قد غزوا تاريخ العرب والاسلام ، فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألفوا فيه كثيرا من الكتب[1] .

يحدد المستشرق (بارت)[2] منتصف القرن التاسع عشر موعدا أصبح فيه الاستشراق علما ، بعد أن تخلص المستشرقون من الآراء القديمة ، ومن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى ، وبعد أن اعترفوا لعالم الشرق بكيانه الخاص وحياته الخاصة ، وعند ذلك اجتهد المستشرقون فى نقلصورة موضوعية للشرق ، وفهم الموضوعات الشرقية فهما موضوعيا . واستمرت جهود المستشرقين نحـو تنقية الاستشراق من شـوائبه الدينيـة والاستعمارية ، حتى تاريخنا المعاصر ، حيث وصل الاستشراق

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ص ١٧

الى مرحلة التحول النهائى ، فأصبح علما قائما على النقد التاريخى •

وحدد (بارت)[1] مهمة المستشرق المعاصر ، فقال أن واجبه هو : اختراق الأفق الفكرى الذى تفرضه البيئة حولنا ، والقاء نظرة الى عالم الشرق ، لكى نتعلم من الكيان الغريب علينا كيف نحسن فهم امكانيات الوجود الانسانى ، وكيف نحسن بهذا فهم ذاتنا نحن فى نهاية المطاف •

كان استقلال الدول العربية والاسلامية من عوامل اتجاه الاستشراق هذه الوجهة العلمية ، فقد تخلى كثير من العرب والمسلمين عن نظرة الشك والخوف والحذر التى كان ينظرونها الى الاستشراق والمستشرقين • كما أن انهيار النفوذ الأوروبى الاستعمارى فى معظم الدول العربية والاسلامية ، صرف المستشرقين الى الجوانب العلمية ، فقد انهار الاستعمار الذى كان سند الاستشراق ، ولذا رأى كثير من المستشرقين أن يصبح العلم والحقيقة أساسا لاستشراقهم •

وأصبح كثير من المسلمين ينظرون الى الحضارة الأوروبية ، لا على أنها حضارة المستعمرين الطامعين ، بل على أنها حضارة عالمية حديثة ، فقد انهار الرباط الذى كان يربط الاستعمار

---

(١) المصدر السابق ص ١٣ •

والحضـــارة الغربية • ومن ثم تغيرت النظرة الى التاريخ العربى والاسلامى •

وفى ذلك يقول المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث)[1] : ان آراء القرن التاسع عشر قد تلاشت أمام أفكار القرن العشرين بعد نهضة العـــالم الاسلامى • وبدأ اقبال المسلمين على الحضـــارة الأوروبية ، التى كان قد أدخلهـــا المستعمرون فقد فقدت هذه الحضارة وصفها القديم بأنها (غربية) وأصبحت حضارة (عصرية عالمية) ، انتظمت المسلمين وأصبح رفضها بمثابة الرغبة فى العزلة ، أو بعبارة أخرى الزهد فى الحياة فى القرن العشرين • وان معرفة الاسلام معرفة حقة لتنتهى الى القوم بأن استقلال المسلمين لا يعنى العزلة ، فالحرية مشاركة •

ولكن رواسب الأطماع الاستعمارية الاوروبية لا تزال باقية فى نفوس بعض العرب والمسلمين ، فظلوا ينظرون نظرة شك وحذر الى الحضـــارة الأوروبية وأفكار المستشرقين ، فيقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين [2]: أخفقت محاولات التوفيق بين الاسلام والحضارة الحديثة ، ولكن فشلها لا يعود الى تعاليم الاسلام نفسه بل الى أسباب أخرى أهمها أن الحضارة الحديثة

---

(١) سميث : الاسلام فى التاريخ الحديث ص ١٠٠ — ١٠١.

(٢) يوم الاسلام ص ٣١٥ •

تقدمت اليهم أول ما تقــدمت وهى تحمل فى احدى يديهــا المخترعات الحديثة ونتاجها فى العلوم والفنون ، وفى الأخرى وسائل الاستغلال والاستعمار ، فلذلك قبلها المسلمون كارهين مكرهين ، ولو تقدمت اليهم على غير هذا الوجه لقبلوها قبولا حسنا كما قبلوا الحضــارة اليونانية والفارسية والتركية من قبل ، والثالث أنها جاءتهم على يد بعض المسيحيين المتعصبين الذين اكتووا بنارهم من أيام الحروب الصليبية الى اليوم .

أصبح الاستشراق فى العالم الأوروبى الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع . وأصبحت مادة علمية جديرة بالوجود ، وهى ممثلة فى كل جامعة من الجامعات بكرسى رسمى يشغله أســتاذ ، ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرســين والمعيدين فى تخصص الاســتشراق ، الى جانب الأساتذة . ويعنى هذا أن الناشئة من المستشرقين يلقون ما يؤمن مستقبلهم من الناحية المــالية نوعا ما . والمجتمع الأوروبى ، والحكومات الأوروبية ، يضع تحت تصرف المستشرقين الامكانيات اللازمة لاجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشــاط المستشرقين التعليمى فى هذا المضمار[1] .

ولكن حركة الاستشراق فى التــاريخ المعــاصر اصطدمت

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٢ .

بالفروق القائمة بين الدنيوية والمـادية الأوروبية ، والروحانية الشرقية • ويدافع (ولفرد كانتويل سميث)[1] عن الدنيوية الأوروبية ، ويصفها بأنها عالمية ، فيقول : ان الفروق الجامدة بين المدنيات لا وجود لها اليوم ، فالحضارة الحديثة رغم أنها نشأت فى أول الأمر فى الغرب والشرق • فالدنيوية ، اذن ، ولو أنها مستحدثة بوجه عام ، الا أنها لن تصبح غريبة ، بل عالمية تسرى فى كل الحضارات الأخرى •

وحينما تطورت حركة الاستشراق فى العصر الحديث ، وبدأت تأخذ الطريق العلمى بدأ الصدام بين فلسفة الشرق ، وفلسفة الغرب ، وكان لا بد لنجاح جهود المستشرقين من تقارب هاتين الفلسفتين ، بحيث تكون هناك فلسفة لا هى شرقية بحتة ، ولا هى غربية خالصة • وفى ذلك يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين[2] : يجب أن يكون للعالم فلسفة واحدة تسيره لافلسفتان والذى يقود العـالم الآن الفلسفة الأوروبية فى عقـائدها ونظرياتها ونظام حياتها ، وهى فلسفة ناقصة تعتمد على المـادة والقوة • وفلسفة الشرق ناقصة ، تعتمد على الروح ولا عقل لها ، واعتمادها على الروح البحت جعلها عرضة للخرافات والأوهام ، وان كان الانسان جسما وروحا ، وجب أن تجاوب فلسفته هاتين العنصرين •

---

(1) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ١٠٢ •
(2) يوم الاسلام ص ٢١٨ — ٢١٩ •

ويرسم المرحوم الأستاذ أحمد أمين أيضا الصورة التى يجب أن تكون عليها المدرسة العلمية الجديدة ، ومنهجها ، فيقول : ولا ينقص المسلمين فى الوقت الحاضر الا شىء واحد ، وهو مدرسة جديدة ذات منهج جديد ، مدرسة لا شرقية ولا غربية ، فان المدرسة الشرقية ، أعنى مدرسة العصور الوسطى لم تعد صالحة للعصر الحاضر لأنها تعفنت بمرور الزمان . والمدرسة الغربية معيبة فى بلدانها ، فكيف اذا قلدت فى غير بلادها ؟ اننا نريد مدرسة تضع منهج العلوم كمنهج البلاد الأوروبية ، مع خلاف بسيط وهو أن يطعم منهج العلوم بالنية الحسنة ، نية خير الانسانية لا تدميرها . بل نحن متسامحون اذا وصفنا العلم بأنه أوروبى ، لأن العلم لا وطن له ، ولا يقتصر على خدمة الدين دون دين . أما فى الأدب والتاريخ ، فمنهج مدرستنا غير منهج مدرستهم . انهم سممونا بأشياء كثيرة ، سممونا بقولهم ان الفن للفن ، وبقولهم : ان الأديب حر يقول ما يشاء ، وسممونا بمنهجهم التاريخى الذى يقضى بأن مركز العالم الرجل الأبيض ، ومن عداه فعلى هامشه ، الى غير ذلك[1] .

ورغم تطور حركة الاستشراق ، ونبذها الجوانب التعصبية التى كانت من طابع العصور الوسطى ، فقد استمر الاستشراق

---

(1) يوم الاسلام ص ٢١٩ .

يهتم بالدراسات الاسلامية أكثر من اهتمامه بالدراسات العربية . ويبرر المستشرق (بارت)[1] هذا الاتجاه فيقول : يرتبط الاسلام بالعروبة بعلاقة تبادل فريدة ، فقد كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة فى بوادى وواحات شبه الجزيرة التى سميت نسبة اليهم يعيثون فسادا ، حتى أتى محمد ودعاهم الى الايمان بالله واحد خالق بارىء وجمعهم فى كيان واحد متجانس ، وانطلقت آيات وسور القرآن لأول مرة فى مكة ، وهى أقدم أعمال الثقافة الاسلامية العربية المدونة . ولكن العالم الواسع المترامى الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالاسلام الى عامل من عوامل القوة السياسية . لهذا كانت ظاهرة الاسلام ظاهرة تلقى أسبقية وأفضلية فى ميدان البحوث الاستشراقية أو على الأدق فى ميدان البحوث العربية الاسلامية .

وأدت جهود المستشرقين ، واهتمامهم بالمنهج العلمى ، وتطوير الدراسات الاسلامية والعربية ، الى ظهور مفاهيم جديدة لألفاظ (الثقافة) و (المدنية) و (الحضارة) . وأصبحت (الثقافة) تقابل ما يسميه الغربيون Culture فبين اللفظين شبه فى أصل المعنى ، اذ كلتاهما تعنى التهذيب والتربية والتنمية ، ومن هنا أصبح المدلول العام لكل من هاتين الكلمتين

(1) الدراسات العربية والاسلامية ص ٢٠ .

ـ العربية والافرنجية ـ الجانب الروحى المعنوى من حياة الفرد أو الجماعة .

أما كلمة (مدنية) فمن السهل أن نصطلح على أن نعنى بها جانب العلم والمادة والاختراع من حياة الأمم . فالمدنية الغربية مثلا يقصد بها ذلك الرقى العلمى والمادى الذى حققته أوروبا وأمريكا فى العصر الحديث والذى قام على أساس الطريقة والنظريات العلمية ، وما أدت اليه من اختراع ، ومن تسخير لقوى الطبيعة ، وتحكم فى عناصرها ، وما كان لذلك من أثر فى المعيشة وأساليبها ، وفى السلم والحرب ، والصناعة والزراعة وما اليها .

ولكن هناك من يستعمل كلمة (حضارة) مرادفة لاستعمال كلمة (مدنية) وهما تقابلان الكلمة الغربية Civilization .

ومن يستعمل كلمة (حضارة) بالمعنى الواسع الذى يشمل (الثقافة والمدنية) أى يشمل ظواهر الحياة الروحية والحياة المادية على السواء . فاذا تحدثنا عن حضارة الاسلام قصدنا ما وضعه الاسلام من أسس للعقيدة والأخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية ، وما أنتجته البيئات الاسلامية من أدبي

وفن وفلسفة ، وما وصل اليه علماء تلك البيئات من نظريات ، وما أبدعوه من مخترعات[١] .

اهتم المستشرقون بتاريخنا الحضارى ، وهم يعتبرونه ركنا أصيلا فى دراسة أدبنا ولغتنا وعلومنا . ويرجع اليهم الفضل فى ابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الاسلامية . فقد أبرزوا أثر الاسلام فى حضارات الأمم الأخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، كما أوضحوا أثر الحضارة الاسلامية فى حضارة أوروبا . وأوضح المستشرقون أن الاسلام لم يكن مجرد ثقافة روحية ، ولم تنحصر حضارته فى الأدب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم تكن الحضارة الاسلامية تراث جنس واحد أو أمة خالصة من الأمم ، فقد أنشأ الاسلام حضارة واسعة غنية ، فيها الروح والمادة ، وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، وقد اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الانسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب منها مبادىء النهضة فى العصور الوسطى ، وقد اعترف المستشرقون بذلك ، وأخرجوا عديدا من الأبحاث فى هذا المجال .

وكان فهم المستشرقين للاسلام وطبيعته وروحه ، يحدد

---

(١) محمد خلف الله أحمد : الاسلام والحضارة ص ١٣ — ١٤ . (طبعة وزارة الارشاد القومى) .

مدى نجاحهم فى دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة ، وكلما وضحت صورة الاسلام فى أذهانهم ، أصبحت أبحاثهم واقعية وحقيقية وذات قيمة علمية . كما أن فهم المستشرق للاسلام يبعده عن تأثره بحضارته الغربية المادية العصرية الدنيوية . وفى ذلك يقول المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث)[1] : يمر المجتمع الاسلامى اليوم ، شأن بقية الجنس البشرى بمرحلة انتقال خطيرة ، والذى يميز هذا المجتمع أن أعضاءه يواجهون الحياة العصرية ، بحيرتها وفرضها ، بوصفهم ورثة تقليد فريد والسمات المميزة لهذا المجتمع هى : ايمان ، واسلام ، وماض عظيم . ان التطورات التى حدثت فى العالم الاسلامى كثيرة وجوهرية لدرجة تجعلها تصعب على الفهم ، على أن هذا الفهم لا غنى عنه لغير المسلمين حتى يقيموا صلاتهم بالعالم الاسلامى على دعائم من الفهم والادراك كما أن فهم الأحداث الجارية فى العالم الاسلامى انما يتضمن فهما لصفتها الانسانية . فان عقيدة المسلم ، صفة وشكلا ، لتؤثر فى تطور مجتمعه سياسيا واقتصاديا وحضاريا . اننا فى حاجة الى فهم شامل وواضح لماهية الاسلام ، وماهية الحياة العصرية ان أردنا فهم حالة العالم الاسلامى ، فان الاسلام قوة ، وكان فى حركة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

---

(١) الاسلام والتاريخ الحديث ص ٩ .

منـــذ أوائل النهضة الأوروبية احتلت دراسة الفلاسـفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان ، وظهر أثر الفــكر الاسلامى فى بعض الفلاســفة الغربيين ، مثــل (ديكارت) وترجمت بعض روائع الآداب الشرقية مثل « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات • واتجهت العناية الى دراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبدأت تظهــر الكتب الأوروبية عن الاســـلام وتاريخه ، والترجمات المختلفة للقرآن ، وأسست الجمعية الأسيوية فى انجلترا وفى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الاوروبيون ينقبــون عن المخطــوطات الشرقية ويحققونهــا وينشرونهـــا •

والحق أن كثيرا من كتب المراجع التى نعتمد عليها اليوم فى دراساتنا العربية والشرقية انما يرجع الفضل فى ظهورها وتيسير الانتفاع منها الى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمــان والايطاليين وغيرهم •

وفى الأعوام ١٨٣٣ و ١٨٤٣ ظهرت مؤلفات فتحت العصر الحديث فى البحث التاريخى النقدى لحياة محمد وتاريخ ظهور الاسلام • من هذه المؤلفات (النبى محمد ، حياته وتعاليمه) و (مدخل تاريخى نقدى الى القرآن) من تأليف (جوستاف

فايل ١٨٠٨ — ١٨٨٩) ، وهذا الكاتب من أصل يهودى ، نال تربية تلمودية ، ثم درس بالجامعات الألمانية وعرف المنهج التاريخى . ويمتاز كتابا (جوستاف فايل) بأنهما من ناحية الموضوع أكثر شمولا . وكتاب السيرة خاصة يستحق أن يعتبر فاتحة عصر جديد . واذا كان الكتابان لا يجدان اليوم قراء يحفلون بهما ، فمرد ذلك الى أن البحث فى حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) قد تقدم فى هذه الأثناء ، وظهرت نتائجه فى منشورات حديثة قريبة المنال . وقد استعمل (فايل) فى سيرته كل المصادر التى أمكنه الوصول اليها بكل الطرق ، ورحل خاصة الى مدينة (جوتا) ليبحث فى المكتبة الأميرية بها عن مخطوطات تختص بموضوعه . أما كتابه (مدخل الى القرآن) فقد قسم فيه السور المكية لأول مرة الى ثلاث مجموعات ، تقسيما أخذ عنه (نولدكه) فيما بعد . وقد اتبع (فايل) كتابه (محمد النبى) بعد ذلك بكتاب فى ثلاثة مجلدات هو (تاريخ الخلفاء) أكمله بكتاب (تاريخ الخلافة العباسية فى مصر) . وفى هذه المصنفات كذلك استخدم المصادر الأولى بعد تمحيص مادتها وتقديرها قدرها على نحو استقلالى[1] .

هذه هى بداية اهتمام المستشرقين الألمان بتاريخ الرسول والتاريخ الاسلامى على أساس منهجى علمى . أما المستشرقون

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٢١ — ٢٢ .

الفرنسيون ، فقد اهتموا أيضا بالدين الاسلامى والدراسات التاريخية ، فكتب (بودى) حياة محمد (سنة ١٦٧١) وهو الكتاب الأول الذى وقف به الفرنسيون على الاسلام . وتناول المستشرقون الفرنسيون ترجمة (مارانتشى) الراهب الايطالى (بادوى ١٦٩٨) بالنقد والتعليق ، ونقلوا ترجمة الانجليزى (بريدو) الى الفرنسية (١٦٩٩) . وفى سـنة ١٧٣٠ طبع الكونت (دى بو لنفلييه) تاريخ العرب وحياة محمد ، فأظهره بمظهر النابغة ورسول خير الى الجزيرة العربية . وفى سنة ١٧٨٨ كتب (دى باستوريت) كتابا للتوفيق بين ديانات الشرق الثلاث زرادشت وكونفيشيوس ومحمد ، فأصاب الاسلام حظ موفور ، وأطرى (لامارتين) النبى العربى فى كتابه (تاريخ تركيا) ، وخصه (ريمون ليروج) بسيرة رائعة . ثم ازدادت عناية الفرنسيين بالشرق الأدنى وشمالى افريقية[1] .

كما سـاهم المستشرقون الايطاليون فى الدراسات العربية والاسلامية فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت ايطاليا فى مقدمة دول الغرب التى اتصلت بالشرق نوعا ، ونالت الثقافة العربية واللغات الشرقية من الترجمة والحفظ والتعليم والنشر ، بفضل الفاتيكان ، حظا موفورا موصولا . وفى القرن ١٩ نظمت ايطاليا دراسة اللغات الشرقية وعهدت بها الى اعلام المستشرقين من

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١٧١ .

أمثال : آماري ، وسيابازيللي ، وبونانتريا ، واغناطيوس جويدي ، والأسقف بوجارديني ، ونللينو وغيرهم[1] .

وكان الاستشراق الانجليزي بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من استشراق منذ اتصال بريطانيا بالشرقين الأوسط والأقصى اتصـــالا ثقافيا وعسكريا واقتصاديا واستعماريا . وفي خلال ذلك اتخـــذ طابعه العلمي الخالص عندما توفرت للمستشرقين أســـبابه ، وتنوعت أغراضه ، وانقطعوا اليه ، وأخلصوا فيه .

وفي مطلع القرن الثامن عشر ، ازدهر الاستشراق متأثرا بعوامل عديدة من أشهرها : انشاء كرسيين جديدين للعربية في جامعتي أكسفورد وكمبريدج ، واسترعاء التوسع الأوروبي في الشرق الأقصى ، ولا سيما الهند ، اهتمام العلماء . ثم اختتام القرن الثامن عشر بحملة نابليون على مصر ، ومن صحبها من العلماء ومعظمهم مستشرق ، فاتصل الشرق الأدنى بأوروبا في الثقافة والسياسة والاقتصاد اتصالا وثيقا ، وتبين منه أن العربية أصل كل ثقافة اسلامية في أية لغة من اللغات .

وفي القرن التاسع عشر ، استمر ذلك الازدهار ، على تطور كبير في الدراسات العربية ، بفضـــل ما نشره علماء حمـــلة

(۱) المصدر السابق جـ ۱ ص ۳٤۸ .

نابليون ، وتخريج مدرسة (دى ساسى) الفرنسية جيلا كاملا من المستشرقين الأوروبيين ، وانشاء كرسى للعربية فى جامعة لندن ، وتأسيس الجمعيات الأسـيوية واصدار مجلاتها ، واتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين فى زيارة الشرق الأوسط فتوافدوا عليه من مختلف الجامعات الأوروبية ، وتبعهم عدد كبير من الرواد والرحالة والعلماء فى حين لم تكن هذه الفرصة ميسرة لغـالبية قدمائهم . ولمـا عاد الانجليز الى انجلترا تعاونوا على التدريس والترجمة والتحقيق والتصنيف ، فتوفر لجامعة كمبريدج ثلاثة من مشاهير المستشرقين هم : بيفان ، ونيكولسون ، وبراون .

وقـد تناولت دراسات المستشرقين موضوعات شتى من اللغـات والآداب والعـلوم والفنون والعقـائد والتـاريخ والجغرافية . هذا خلا الذين نشطوا للتنقيب عن الآثار وحل رموزها ووصف رحلاتهم ، فجلوا كثيرا من بلاد العرب وتراثها للعـالم[1] .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين ، يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسـيكية الاسلامية والعربية والشرقية ،

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣١ .

ويعقد بعضهم أواصر الصلات مع بعض ، ومع البارزين من العلماء الشرقيين .

وكان لمصر ، ولا يزال ، جولات موفقة فى تلك المؤتمرات . ففى المؤتمر الذى انعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ قدم شوقى ملحمته الخالدة :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

وفى هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقيين فى مختلف فروع الاستشراق ، وأصبحت لهم مكانتهم فى أوساط المستشرقين وفيما تقوم به من مشروعات علمية .

أما المرحلة العلمية التى وصل اليها الاستشراق الآن ، فهى مرحلة العناية بالاسلام فى أوضاعه واتجاهاته الحديثة . فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، ولمختلف الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية والاوروبية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الأمم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة ، والى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الأصيلة فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ، وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف فى النزعات وألوان التفكير ، وما مدى كل واحدة فى التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية

المعقدة ، وعلى الأخص فى التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها هذه الشعوب فى التوفيق بين المعتقـدات الدينية ونتائج الفـكر العلمى الحديث[1] .

ومن أشهر المستشرقين الذين يمثلون هذه الاتجاهات الحديثة المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) الذى كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية وأستاذ للدين المقارن بجامعة ماكجيل بمونتريال بكندا . وقد أقام فى لاهور بضعة سنوات يدرس الاسلام وتاريخه ، وطاف ببعض أقطار الشرق الأوسط ومعظم أرجاء العالم الاسلامى ، ونشر عدة مقالات عن الاسلام فى العصر الحاضر وتطوره والدور الذى يضطلع به الاسلام والمسلمون فى عالم اليوم . وقد وضع (سميث) عددا من الكتب أشهرها (الاسلام الحديث فى الهند) و (تحليل اجتماعى) و (الاسلام فى العالم الحديث) و (الاسلام فى التاريخ الحديث) وقد قامت جامعة برنستون بنشرها . وقد زار (سميث) الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ وألقى محاضرتين فى القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة[2] .

---

(١) محمد خلف الله أحمد ، الاسلام والحضارة ص ٢٠ — ٢١.

(٢) انظر مقدمة كتاب (الاسلام فى التاريخ الحديث) لسميث ص ٣ — ٤ .

تحـدث المستشرق الألمـانى (بارت) عن آماله بالنسبة لحركة الاستشراق عامة ، وفى ألمـانيا خاصة ، فقال : وهناك آمال تختلج فى أنفسنا فى أمر توسـيع وتطوير الاستشراق الألمـانى ، فنحن ، على قدر ما أتبين ، مفتقرون فى الوقت الحاضر الى عالم متخصص فى عملية الاصلاح والتجديد التى تتناول الشريعة الاسلامية ، وخاصة ما يتصل منها بالأحوال الشخصية . واذا كان لدينا الآن تمثيل قوى حاليا للبحوث الخاصة باللهجات فى الدراسات العربية ، فان عدد الأبحاث التى تتناول تاريخ الأدب ما يزال قليلا نسبيا ، وما يزال البحث فى الأدب العربى الحديث فى بدايته لم يتجاوزها الا قليلا . وهناك طائفة كبيرة من الموضوعات والمشكلات الهامة تتطلب المزيد من الجهد ، ولدينا جيل جديد مؤهل نابه مستعد للعمل ، وللدلائل كلها توحى بأن فروع علوم العربية والعلوم الاسلامية ستستمر فى الازدهار والنماء بالجامعات الألمـانية فى المستقبل أيضـا .

الفصل الرابع

تصنيف المستشرقين

حركة الاستشراق حركة واسعة النطاق ، متشعبة الفروع ، تختلف فى بدايتها وفى المراحل التى قطعتها ، وفى اتجاهاتها ودوافعها ، وفى النتائج التى وصلت اليها • وقد ساهم فى حركة الاستشراق آلاف من المستشرقين ، عبر العصـــور التاريخية المختلفة ، وكانت جهودهم متفـــاوتة ، مختلفة فى صـــورها وبواعثهـــا •

وليس المستشرقون جميعا صنفا واحدا ، فهناك من قـــدم انتاجا علميا ضخما أفاد به البشرية عامة والشرق خاصة ، ومنهم من كان انتاجه وجهده متواضعا ، ومنهم من عاش على هامش الاستشراق • ومهما كانت جهود المستشرق ، فقد ساهم بها فى وضع لبنة أو لبنات فى بناء الاستشراق ، ولكن يهمنا فى تقييم هذه الجهود ما اتصفت به من انصاف أو اجحاف ، فقد أنصف كثير من المستشرقين الاســـلام والرسول والتاريخ الاســـلامى والحضارة العربية ، ولكن بعض المستشرقين دفعهم تعصبهم أو حقـــدهم أو جهلهم أو تقصيرهم الى الاساءة والاجحاف والجحـــود •

ولذا يمكننا تصنيف المستشرقين من حيث الانصاف والاجحاف الى ثلاث فئات متميزة . فهناك فئة قدمت للعالم أبحاثا قيمة عميقة ، وفى نفس الوقت كانت عادلة فى حكمها ، متزنة فى دراستها ، منصفة فى نظرتها ، فأشادت بالاسلام وبالرسول وبحضارتنا العربية الاسلامية . وهناك فئة ثانية تعمدت الاساءة حينما أمسكت بالقلم لدراسة تاريخنا وحضارتنا ، وان كانت فى نفس الوقت قد توصلت الى أبحاث ذات قيمة علمية . أما الفئة الثالثة ، فقد وقعت فى المحظور ، ولم تنصف الاسلام وتاريخه وحضارته ، ولكن بدون عمد أو قصد ، اما لجهل بالعقيدة ونظمها ، أو قصور فى البحث ، أو لعدم التمكن من اللغة العربية ، ولذا فحكمنا على هذه الفئة الثالثة يختلف عن حكمنا على الفئة الثانية التى أساءت عن عمد وتربص واصرار . ولنفصل الحديث الآن عن هذه الفئات الثلاث .

أولا : المستشرقون المنصفون :

لا شك أن هناك فئة من المستشرقين الغربيين اتخذوا الاستشراق علما قائما بذاته ، ووهبوا له حياتهم ، وضحوا من أجله بالكثير من جهدهم ووقتهم ومالهم . بل ربما عاد عليهم الاستشراق بالأضرار أحيانا . فميخائيل سكوت نالته ريبة من ترجمته ابن رشد ، وروجر بيكون ألقى به فى السجن لاعتماده على الفلسفة الشرقية ، وبوستل ، وكان أعلم

مستشرق فى عصره يجله الملوك والامراء ، اعتقل فى سبيل الاستشراق • وسيمون أوكلى انقطع لتدريس اللغة العربية فى كمبريدج انقطاعا عاد عليه وعلى أسرته بالافلاس والسجن ، حيث أتم الجزء الثانى من كتابه تاريخ المسلمين • ولى سترانج كف بصره فيه ولم ينقطع عنه • والامير كايتانى أنفق ثروته على الاستشراق — عشرة آلاف جنيه ذهبا فى السنة — وأفلس من بعده • وفرينل لقى مصرعه فى التنقيب عن الآثار فيما بين النهرين ، ورتسن ذهب ضحية الاستشراق بعد أن كشف عن آثار اليمن • كما لقى (بالمر) مصرعه خلال عودته من سيناء ، وقد قام بنشر ديوان البهاء زهيرمتنا ، وترجم شعره الى الانجليزية [1] •

ولا يعيش المستشرقون الاوروبيون فى الفراغ ، شأنهم فى ذلك شأن ممثلى الفروع الاخرى من الدراسات غير الشرقية ، بل يضعون أنفسهم فى خدمة المجتمع الذى ينتمون اليه ، والذى يمولهم ويشجعهم • ويتضح هذا فى أن تخصص الاستشراق له فى كل جامعة أوروبية على الاقل كرسى يمثله ، ومجموعة من وظائف المعيدين تتيح المجال لتنشئة جيل المستقبل من المستشرقين • وهناك عون آخر جوهرى يتلقاه الاستشراق ويتمثل فى المكتبات المتخصصة اللازمة لكل عمل علمى • فكل

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٢ ص ١١٤٩ •

قسم للدراسات الشرقية أو معهد للدراسـات للشرقية بأى جامعة من الجامعات الاوروبية يمتلك مكتبة كبيرة أو صـغيرة خاصة بالقسم أو المعهد تكتمل وتتسع على الدوام . علاوة على الأقسام الخاصة بالاستشراق فى مكتبات الجامعات نفسها [1] .

وكثير من المستشرقين يهوون الاستشراق ثم يتخذونه مهنة كأى من المهن الحرة ، فى معاهده ومكتباته ومتاحفه ومطابعه ودور نشره ومجلاته ، الا ذوى اليسـار منهم ، أو الذين ضـاقت مؤسساته عنهم فطلبوا الرزق من سبل غيرها ، دون أن ينصرف أحدهم عن التحقيق والترجمـة والتصنيف فى تراثنا العـربى والاسلامى الذى أمسى من تاريخ العلوم والآداب والفنون ، لا مطمع لدولهم فيه أو اقبال لمواطنيهم عليه أو مسايرة لعصره له ، فلا ثراء للمهنة ولا أمل لصاحبها فى ثراء .

أشاد الاستاذ نجيب العقيقى فى كتابه القيم عن المستشرقين ، بجهودهم فى سبيل الاستشراق ، فقال : لقد شاهدنا وسـائل المستشرقين من اقامة معاهد ومكتبـات ومتاحف ومطابع ودور نشر ومؤتمرات وبعثات ، وما خصت به كلها من هبات الافراد ومسـاعدات المؤسسات وميزانيـات الحكومات . ولو تـرك المستشرقون المهمات التى يقومون بهـا لنا ، نحن الشرقيين ، لاستنفدت منا ثروات طائلة .

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٠٣ .

ثم يقارن الاستاذ العقيقى [1] بين جهود المستشرقين ، وجهود الشرقيين العلمية ، فيقول : ولو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وصونه وتحقيقه وبين ما قمنا نحن به فى سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية • ولو وازنا كذلك بين ترجمة احد المستشرقين وآثاره وبين ترجمة أحد أعلامنا وآثاره لوجدناه يضاهيه خلقا علميا وعدد كتب ، وألا غنى لنا عن معظمها فى علومنا وآدابنا وفنوننا ، ولا سبيل الى جحد فضلها فى فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما فى تراثنا من ثراء ، ثم على نهضتنا الحديثة التى كانوا من دعائمها • ولو سعينا الى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات ، منذ ألف عام ، وفى كل مكان لاحتجنا الى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلدهم طوال حياتهم وفى ذلك من العسير علينا ما فيه ومن النفقات عليه ما يستنفذ طائل الثروات •

وفى الحقيقة لايمكننا ، نحن الشرقيين ، أن ننكر فضل هؤلاء المستشرقين على الدراسات التاريخية المتصلة بالعرب والاسلام • فلن يفعل ذلك الا غير منصف أو متغافل عن الحق، فان جهودهم فى هذا السبيل لا يبلغها انكار • وقد يكون لبعضهم مآرب تجافى نزاهة العلم فى الكتابة ، أو تهدف الى

(١) المستشرقون جـ ٣ ص ١١٥٠ •

أغراض بعيدة عن روح العلم والحق ، ولكن أكثرهم قد بذل من الجهد فى البحث مالا يسع منصفا انكاره [1] .

فى القرن التاسع عشر ، ظهر عدد كبير من المستشرقين فى مختلف الاقطار الاوروبية ، امتاز بعضهم بدقة البحث واتقان الطريقة العلمية وتطبيقها على الدراسات العربية ، وبشمول النظر واتساعه والتطرق الى جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وقد قاموا بنشر عدد كبير من كتب التاريخ العربية، وكتب أخرى تناول جوانب كثيرة من الحضارة العربية ، نشرا علميا دقيقا كما اهتموا بجمع المواد الاولية ، والوثائق الاصلية لدراسة التاريخ ، من نقود وأوراق بردى ، فضلا عن الحفريات التى قاموا بها فى عدد كبير من مراكز الحضارة الاسلامية، يضاف الى ذلك أن المستشرقين بحكم نشوئهم فى أوروبا حيث تقدمت دراسة التاريخ بأساليبها وآفاقها كانت لهم نظرة أوسع ، فاهتموا بجوانب متعددة من التاريخ الاسلامى ، وأظهر بعضهم عمقا فى التحليل واصابة فى التعليل ، ونضجا فى الاحكام [2] .

وهناك فئة من المستشرقين المنصفين أقبلت على اعتناق الاسلام عن اقتناع ورضى أمثال : بوكهارت ، وكرنكوف ،

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦.
(٢) من مقدمة كتاب علم التاريخ عند المسلمين للمستشرق (فرانز روزنثال) ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ص هـ (طبعة فرانكلين سنة ١٩٦٣) .

وزوتستين ، وشنيستر ، وجرمانوس ، وكثير من البولونيين كما اعتنق أحد عشر ألمانيا الاسلام فى برلين وتسموا باسماء اسلامية . كما أسلم بعض المستشرقين على يد شيخ الجامع الازهر مثل الدكتورة وارزولايان الالمانية التى تسمت باسم (سامية الازهرية) ومثل الامريكية (خديجة دلتك) والامريكى (ليورس) الذى تسمى باسم الشيخ محمـد الازهرى ، ومثل السويسريان : جميلة زوسـترنج ، وألبرت كادلر ، ومثـل المستشرق البريطانى (جونس) والصحفى البريطانى (لويس هارد) الذى أطلق على نفسه اسم (رمسيس محمد يوسف) ، وغيرهم [١] .

يدافع المستشرق (ستورى) عن المستشرقين ، ويرى عدم اتهامهم جميعا ، بدون استثناء بالتعصب والاجحاف ، فيقول : « انكم فى البلاد العربية تعتقدون أن جميع المستشرقين متعصبون على الاسلام ، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد . نعم ، ان هناك فريقا تعصب بحكم صنعته التى يرتزق منها ، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم ، وليس من الانصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين . ان الذين خدموا العربية كثيرون، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا » [٢] .

(١) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٦٢ .
(٢) الدكتور اسحق موسى الحسينى . عـلماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤ (القدس ١٩٤٠) .

تحدث المستشرق الالمـــانى المعاصر (بارت) [٢] عن واجب المستشرق فى الوقت الحاضر ، فقال : لا شك أن البحث العلمى العميق وحده هو الذى يأخذ بيدنا الى الامام ، ولا شك أننا لا نستطيع أن نجعله مقبولا من كل انسان سائغا لكل فم . هذا الى أن المستشرق العالم مضطر اليوم أكثر من أى وقت مضى الى الكلف بالثغرات ، أعنى الى الاهتمام بمراكز ثقل معينة والى قبول الاكتفاء من الميادين الاخرى بما يكتفى به غير المتخصص فيها من علم . ولكن لابد أن تكون مراكز الثقل التى يوجه اليهـا اهتمامه مراكز ثقل حقا وصدقا ، ولاينبغى أن تكون مجرد غرائب وعجائب ، والفيصل فى الامر هو تقدير ما اذا كانت المعلومات والاراء التى يرجو الحصول عليها نتيجة لبحثه تبشر فى غير كثير من الكتب وفى وقت معلوم معقول بثمرة تفيد جماعة أوسع من اخوانه البشر . وقد يؤتى المتخصص فى العلوم الاســلامية والعربية فرصة تعريف جمهور كبير بميدان نشاطه العلمى مباشرة بمحاضرة عامة يلقيها عليه ، أو كتيب مبسط يصنفه له ، فعليه أن ينتهزها ما استطاع الى ذلك سبيلا وألا يتشبث بوجهة نظر (الفن للفن) التى تقادم عهدها .

ومن المستشرقين من قدموا الى الشرق وعاشوا فيه سنوات طويلة ، وأبدوا اعجابهم بحضارة الشرق وأهله . ونذكر من هذه

---

(٢) الدراسات العربية والالمـــانية ص ١٠٧ .

الفئة المستشرق الانجليزى (أدوارد وليم لين) • وقد ولد فى انجلترا سنة ١٨٠١ ، وقدم الى مصر ثلاث مرات ، كانت المرة الأولى سنة ١٨٢٥ ومكث فى مصر فترة عاد بعدها الى انجلترا • وما لبث أن دفعه الحنين الى القدوم مرة ثانية سنة ١٨٣٣ حيث مكث بمصر عامين الى سنة ١٨٣٥ ، ثم عاد الى وطنه • ويبدو أن من يشرب من ماء النيل ما يلبث أن يعود اليه • فقد قدم (لين) الى مصر سنة ١٨٤٢ حيث أقام سبع سنوات الى سنة ١٨٤٩ عاد بعدها الى انجلترا حيث مات سنة ١٨٧٦ •

وخلال اقامة (لين) فى مصر ، لم يعش فى برج عاجى ، بل عاش فى وسط الاحياء الشعبية المصرية ، وصادق كثيرا من المصريين ، وخبر عن قرب الاخلاق والعادات المصرية ، وأخذ يبحث عن أصولها الشرقية والعربية فى الكتب العربية القديمة ، وألف عدة كتب حوت خلاصة مشاهداته ودراساته •

من مؤلفات (لين) كتابه (المصريون المحدثون) [1] وقد تحدث فيه عن عادات وأخلاق المصريين • ووضع (لين) معجما عربيا انلجيزيا ، كما ترجم كتاب ألف ليلة وليلة الى الانجليزية • ومن أبرز مؤلفات (لين) هو كتابه (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) [2] الذى صور فيه جوانب كثيرة من حياة العرب الاجتماعية فى العصور الوسطى ، مع مقارنتها بحياة العرب فى

(١) Modern Egyption.

(٢) Arabian Society in the Middle Ages.

القرن الذى عاش فيه (لين) وهو القرن التاسع عشر ، وقد استعان (لين) بكثير من الكتب والمصادر العربية ، معظمها من المخطوطات ، كما استفاد من ترجمته لقصص ألف ليلة ، تصور حياة العرب فى العصور الوسيطة ، وأصبح كتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) يجمع بين الفائدة العلمية ومتعة القراءة .
وقد قمنا بترجمة هـذا الكتاب الى اللغة العربية عن الطبعة الصادرة فى سنة ١٨٨٣ ، ونشرنا الترجمة فى القاهرة سنة ١٩٦٠ (١) .

وقد ورث (ستانلى لين بول) ابن أخى (ادوارد وليم لين) عن عمه اقباله علي الدراسات العربية والاسلامية ، فوضع كثيرا من المؤلفات التاريخية ذات القيمة العلمية الكبرى ، أبرزها (تاريخ مصر فى العصور الوسطى) و (صلاح الدين) و (قصة القاهرة) و (دراسات فى مسجد) وغير ذلك . وهو صاحب الفضل فى نشر كتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) فى لندن سنة ١٨٨٣ .

ومن أبرز المستشرقين الذين أنصفوا الاسلام وحضارته وتاريخه (جوستاف لوبون) ، وهو مستشرق فرنسى فطن الى

---

(١) أنظر المقدمة التى كتبناها لكتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) لادوار وليم لين ص ٣ — ٤ (سلسلة كتب ثقافية سنة ١٩٦٠) .

فضل العرب على حضارة أوروبا ، فأخرج فى سنة ١٨٨٤ كتاب (حضارة العرب) الذى قام بترجمته الى اللغة العربية الاستاذ عادل زعيتر . ومن كتبه أيضاً (الحضارة المصرية) وقد ترجمه الأستاذ صادق رستم ، ومنها كتاب (حضارة العرب فى الاندلس) وقد ترجمه الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى سنة ١٩٢٣ .

سلك المستشرق (لوبون) فى تأليف كتاب (حضارة العرب) طريقا لم يسبقه اليها أحد ، فجاء جامعا لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها فى العالم ، شاملا لجوانبها ، باحثا فى قيام دولة العرب وفى أسباب عظمتهم ، مبتعدا عن أوهام المشرقين الاوروبيين التقليدية فى العرب والاسلام . وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلمى ، فأوضح فى هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضى ، ووصف فيه أصل الجنس العربى والبيئة العربية ، ودرس فيه أخلاق العرب وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وصناعاتهم وتأثيرهم فى المشرق والمغرب [1] .

ومن أبرز المستشرقين الذين خدموا التاريخ الاسلامى ، المشرق الألمانى (يوليوس فلهوزن ١٨٤٤ — ١٩١٨) الذى أخرج للمكتبة الاسلامية العديد من الكتب منها (محمد فى المدينة أو كتاب المغازى للواقدى فى ترجمة ألمانية مخلصة)

---

(١) أنظر مقدمة الأستاذ عادل زعيتر فى ترجمته لكتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون ص ٦ (الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٦) .

(١٨٨٢) وكتاب « آثار من الجاهلية العربية » ، ثم كتاب « المدينة قبل الاسلام » ، وكتاب « تنظيم محمد للجماعة فى المدينة » ، و « كتب محمد والسفارات التى وجهت اليه » ، وكتاب « مقدمة للتاريخ الإسلامى الأقدم » ، وكتاب « أحزاب المعارضة الدينية السياسية فى عصور الاسلام القديمة » (سنة ١٩٠١) .

أما أعظم كتب (فلهوزن) فهو ولا شك كتاب « الدولة العربية وسقوطها » الذى نشره سنة ١٩٠٢ ، وقام بترجمته الى اللغة العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ونشره بالقاهرة . وقد تحدث المستشرق الألمانى المعاصر (بارت)[١] عن هذا الكتاب فقال : هو كتاب عظيم من الناحية العلمية ومن الناحية الفنية ، وعمل يعتمد على تحليل نقدى للمصادر المتمثلة فى الفقرات المطلوبة من تاريخ الطبرى ، وعرض للتاريخ السياسى للاسلام حتى سقوط الاسرة الاموية يأخذ بمجامع قلوب القراء . ولو اقتصر ما وصلنا من انشائه على هذا الكتاب وحده ، لحق علينا أن نعتبره من أجله أهم مؤرخ كتب عن تاريخ الاسلام اطلاقا .

وكتب (كارل هاينريش بيكر) عن منهج فلهوزن فقال : كان فلهوزن لايتجه الى المادة بالتساؤلات ، ولكنه كان يدع التساؤلات تفرض نفسها من روح المصدر نفسه . وكان يفوق كل من سبقوه

---

(١) الدراسات العربية والاسلامية ص ٢٧ — ٢٨ .

فى أنه يرى المصدر كل متكامل ، ولذلك وقف حيال المدونات الفنية عظيما رفيعا • وكان فى احساسه أنه ينبغى تجديد لكل شىء من أساسه ، لا يجد ضرورة ملحة فى الاحاطة بكل شىء علما وفى مناقشته وتمحيصه •

ثانيا : المستشرقون المجحفون :

وهناك فئة أخرى من المستشرقين أساءت الى الدين الاسلامى، والى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى الحضارة الاسلامية والعربية • ولكن اساءاتهم تتفاوت أيضا ، فهناك اساءات بالغة لا يمكن أن نغفلها أو نغفرها لهم • وهناك اساءات محدودة تدور فى دائرة ضيقة ، قد نغتفرها اذا علمنا أن هؤلاء المستشرقين قد قدموا انتاجا قيما أفاد المكتبة الاسلامية والعربية• ولكنا لا نبرىء هؤلاء وهؤلاء ، فقد كانت اساءاتهم عن عمد ، وعن سوء قصد ، عبروا بها عن نواياهم الخبيثة ، فى اصرار ، وساقوا الأدلة المزيفة لاثبات اتهامتهم •

وكان هؤلاء المستشرقين الذين اتصفوا بالاجحاف والجحود ، على جانب كبير من الدهاء والذكاء والمكر ، فقد بذلوا جهودا علمية كبيرة ، وتعمقوا فى الدراسات العربية والاسلامية ، وقدموا انتاجا علميا قيما ، حتى يغروا أهل الشرق على قراءته أو الاستفادة منه • ولم تكن كل كتاباتهم اساءات فهم أذكياء مهرة ، بل انهم لم يسرفوا فى اجحافهم ، فاقتصرت

اســـاءاتهم عـلى ســـطور قليـلة متنـاثرة بين صفحات الكتـاب العـــديدة ، فكان كمن يضـع (السم فى العسل) ، فأصبحت كتبهـم كوبا من العســل الرائق اللون الحـلو المذاق ، وفيه قطرات قليلة من السم كافية للقضاء على الحياة • وجاءت هذه السطور فى ثنايا الكتاب ، لا يفطن اليها الا متخصص متعمق ، أو قارىء فطن لبيب ،ولكن قد تفوت على القارىء العادى غير المتخصص ، وتؤدى الى بلبلة العقول ، وتشويه الأفكار •

وهؤلاء المستشرقين أيضا لا يسوقون الاتهامات جزافا ، فهم يعمدون الى تقليب صفحات المصادر العربية القديمة ليجـدوا ثغرات ينفذوا منها الى أغراضهم المغرضة ، أو ليتوصلوا الى سطور قليلة يستندوا اليها فى اساءاتهم واتهاماتهم ، وقد يجدون مثل هذه السطور فى بعض المصادر الضعيفة أو القليلة الاهمية ، أو فى بعض الروايات المشكوك فى صحتها ، ثم يقول المستشرقون لنا (لقد شهد شاهد من أهلكم) • وقد يلجأ المستشرق الى التأويل، فيحمل الروايات العربية القديمة ما لا تحتمله ، ويلبس الحق ثوب الباطل ، ويفسرها بما يتفق مع أغراضه وسوء نواياه • ويلجـأ المستشرق الى أساليب ملتوية ليقنع القارىء العـربى والمسلم برأيه ، وقد يظهر المستشرق فى ثوب الحمل البرىء ، وقد يسوق عبارات المديح ، وقد يسرف أيضا فى سوقها ، ويدس بينهـا عبارات قليلة تسىء الى الاسلام وتاريخه •

وفى مقـدمة هـؤلاء المستشرقين الذين نصفهم بالاغـراض

والاجحاف والجمود الأب لامانس (١٨٦٢ — ١٩٣٧) ، رغم أنه قدم الى المكتبة الاسلامية كثيرا من الكتب ذات القيمة العلمية والجهد العميق • ولامنس بلجيكى المولد ، فرنسى الجنسية ، انضم الى الرهبانية سنة ١٨٧٨ وكان من أوائل خريجى جامعة القديس يوسف فى بيروت حيث تعلم اللغة العربية ، ثم أصبح أستاذا فيها • وكان كتاب (فرائد اللغة فى الفروق) أول نتاج شهد له فيه العلماء بسعة الاطلاع ودقة الملاحظة وقوة الاجتهاد • ثم تنقل شرقا وغربا (١٨٩١ — ١٨٩٧) فدرس اللاهوت فى انجلترا ، وتولى ادارة التبشير فى بيروت ، وقام بالتدريس فى لوفان وفينا وروما ، حتى استقر فى جامعة القديس يوسف فى بيروت ، وعهد اليه بالدراسات الشرقية فعكف عليها ، حتى انه قرأ الأغانى سبع عشرة مرة والقلم بيده ، وصنف فيها مصنفات وفيرة قيمة ، وقد توفى فى بيروت • ويضيق المقام هنا عن تعداد آثاره العلمية ، فقد ذكرها الاستاذ نجيب العقيقى فى كتابه (المستشرقون) فى أكثر من ثلاث صفحات كاملة [1] •

هاجم المرحوم الاستاذ كرد على الأب (لامانس) فى كثير من مواضع كتابه (الاسلام والحضارة العربية) [2] ، فكان مما قال عنه : عاهد لامنس تاريخ الاسلام على مناقضته ، وتمحض

---

(١) انظر مؤلفات لامنس فى كتاب (المستشرقون) للأستاذ العقيقى ص ١٠٦٩ — ١٠٧١ •

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠ — ٣٢ •

للحط من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم . لقد نسي لامانس وبعض جماعة من اليســوعيين المتحتم عليهم أمانة العلم ، فأخذوا منذ ألقوا رحالهم في الشرق ، يحرفون آيات القرآن ، ويحذفون من كتب المسلمين ما لايروقهم ، يخلطون الآيات بأبيات من الشعر ، ويجعلون الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، حتى انهم لا يذكرون الرسول عليه الصلاة والسلام بما ينوه من شأنه بزعمهم ، وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نــص طويل ، ليبنوا عليه ما يتخيلونه نافعا لغرضهم يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف في كتب الوضاعين والقصاصين ، ويدعون أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات .

ألف (لامانس) تاريخا مختصرا للشام لم يذكر فيه للاسلام ولا للعرب محمدة ، مدة ثلاثة عشر قرنا ونيف ، ومما أورد فيــه من الأفكار السخيفة ، أن العربي أثبت خلال الفتوحات أنه جبان ضعيف في الجندية ، لا يفكر في غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطا في القتال ، وعلى اســتعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر ، وأنهم تركوا للسكان الأصليين محاكمهم ولسانهم وأنظمتهم البلدية عجزا منهم لا تسامحا ، وأن العرب لا قابلية لهم لشيء من أسباب الحضارة ، وأن الحــروب الصليبية تمثل بسالة الاوروبيين ، وأن صلاح الدين أبقى على الصليبيين عجزا وخوفا منهم ، وأن عهده كان قليل البهــاء ، ووصفه بالطمع . وادعى (لامانس) أيضا أن اليهود عوملوا في

عهد الحروب الصليبية فى الغرب معاملة حسنة ، الى آخر تلك الأكاذيب !!!

وناقش الاستاذ محمد عبد الغنى حسن [1] منهج (لامانس) فقال : كان لامانس أعلم المستشرقين بتاريخ الدولة الأموية ، وكان واسع الاطلاع فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يسلم من تعصب صارخ يكاد ينادى على نفسه ، ولم يسلم من غمزات ونزعات تظهر فى كتاباته • أما طريقته فى الاستنتاج والاستقراء والتقصى والتحليل والتنظيم فهى طريقة علمية يجب أن يتعلم منها المتصدون منا لكتابة التاريخ ، وان كانت استنتاجاته كثيرا ما تكون مبنية على حوادث فردية لا تصل الى مرتبة تأصيل الاحكام •

ومن المستشرقين الذين أساءوا الى الفكر العربى (ديلاسى أوليرى) [2] وهو مستشرق أيرلندى الأصل كان يعمل أستاذا فى جامعة (برستول) ، ولغته العلمية هى الانجليزية ، ولكنه كان يحذق الى جانبها اللغتين الفرنسية والالمانية ، وعددا من اللغات الحديثة والقديمة فى أوروبا والشرق ، كالاغريقية واللاتينية والعربية والسريانية والعبرية والفارسية •

---

(١) علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦ •
(٢) أنظر مؤلفات دى ساسى فى كتاب (المستشرقون) للاستاذ العقيقى جـ ٢ ص ٥٢٣ •

ومن أشهر كتبه (مختصر تاريخ الخلافة الفاطمية) الذى نشر في لندن سنة ١٩٢٣ ، و (الجزيرة العربية قبل محمد) ونشر فى لندن سنة ١٩٢٧ ، و (الفكر العربى ومكانه فىالتاريخ) ونشر فى لندن سنة ١٩٢٢ ونقله الىالعربية الدكتور تمام حسان ، وله أبحاث فى مجلة تاريخ الهند منها (أثر جالينوس فى الفلسفة العربية) سنة ١٩٢٢ ، ومنها (مصادر الثقافة العربية) سنة ١٩٢٥ .

ويعتبر الدكتور تمام حسان [١] فى مقدمة ترجمته لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) مؤلف الكتاب (ديلاسى أوليرى) من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون فى ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه الى ثقافة الاغريق أو الرومان ، فالفقه الاسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ، لأن العرب وجدوا فى الاقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الاسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهلينية ، لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون ، والتصوف الاسلامى ذو روافد من الافلاطونية الحديثة ، لأنه اتفق معها فى بعض الآراء ، بل ان العقيدة الاسلامية نفسها تشتمل على عناصر هلينية لأنها ارتضت بعض ماارتضته المسيحية أو الفلسفة الهلينية .

---

(١) أنظر مقدمة الكتاب ص ٩ (طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة) .

وينسى (ديلاسى أوليرى) أن فقه الاسلام مصدره الكتـاب والسنة ، وأن فلسفة الاسلام وان بدأت فى ظل مؤثرات هلينية قد اشتقت لنفسها طريقا اسلاميا خالصا ، وأنها ارتبطت بالبيئـة الاسلامية برباط محكم ، وأن التصوف الاسلامى وان اشتمل على أفكار شرقية وغربية وقد استمد وحيه من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . نسى المؤلف ذلك ، أو لعله تناساه ، ليعلى من شأن الاغريق الاوروبيين ، أبناء قارته وبنى عمومته وأسلافه الفكريين، وليحط من شأن العرب ، اما لدوافع عنصرية ، أو دينية ، أو هما معـا !!

ان الحـق يقتضينا أن نفـرق بين المستشرقين المبشرين والمستشرقين الباحثين . ولن تجد الجحود للاسلام والتحامل عليه الا بين الفريق الأول ، فمنهم نتوقع كل حق مقصود، وكل نية خبيثة ، وقد كان أجمل الظن بهؤلاء أن تحميهم صفتهم الدينية من الوقوع فيما لا يرضاه دين ، وما لا يقبله عقل سليم ، ولكن لعلهم من هذه الناحية صبوا على الاسلام وتاريخه وحضارته غضبهم ورموه بما هو منه براء .

والحق أننا لن نجرد المستشرق أو الباحث الأجنبى فى الدراسات الاسلامية وما اليها من التأثر بمواريثه الدينية الخاصة، وبمزاجه الشخصى ، وبالظروف والملابسات التى تحيط به حين يكتب عن الاسلام أو نبى الاسلام أو قرآن المسلمين . ومن زعم غير ذلك

فقد اجترأ على تجريد النفس البشرية من بعض خصائصها أو تكليفها بما ليس فى طبعها .

على أن المبالغة فى التأثر بالمؤثرات الخاصة فى مجال البحث العلمى ، المفروض فيه أن يكون نزيها منصفا ، هى ما يعاب على الباحثين الذين يخلطون بين أصول العلم ونزاهة البحث ، والذين لا يستطيعون — وهم أسرى للتأثر والانفعال والعاطفة — أن يفرقوا بين الحقيقة التى يجب أن تقال ، وبين النزوة التى يجب أن تكتب [1] .

حاول المستشرق الامريكى (ولفرد كانتويل سميث) [2] أن يعلل أخطاء المستشرقين الذين تناولوا التاريخ الاسلامى الحديث، ولكنه لم يوفق ، حين قال : ان كل الكتب والاحاديث الاسلامية التى تتصل بالاسلام تتخذ موقف الدفاع وتهدف الى حماية ذمار الاسلام أكثر مما ترمى الى بيانه والكشف عنه . وهذه الحقيقة ، فى تشعبها البعيد ، هى علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين ، والسبب فى أن غير المسلمين يسيئون فهم الافكار الاسلامية الحديثة ، والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف ادراكا تاما ، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسليم ، ولا يتقبلون

---

(1) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ٨ (القاهرة ١٩٦٠) .
(2) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٢٣ — ٢٤ .

سواها . على حين نجد الغربيين يؤمنون بالتفسير العقلى . وهذه الطريقة التى يتبعهـــا المسلمون فى تقبل دينهم تفسد تقدير الغربيين للاسلام الحديث وتقف حائلا أمام المسلم فى صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التى يواجهها .

ثالثا : مستشرقون مجحفون بدون قصد :

وهناك فئة ثالثة من المستشرقين وقعوا فى الخطأ والذل ، وأساءوا الى تاريخنا الاسلامى وحضارتنا العربية ، ولكن بدون قصد أو عمد . وان كنا نحاسبهم على أخطائهم واساءاتهم ، الا أن حكمنا عليهم — بدون شك — أخف وطأة من حكمنا على تلك الفئة السابق الحديث عنها من المستشرقين الذين تعمدوا الاساءة والاجحاف ، وكانوا مغرضين فى كل ماكتبوه . واننا فى حكمنا هذا ، نكون كالقضاة الذين يفرقون فى أحكامهم بين القتل الخطأ ، والقتل العمد مع التربص وسبق الاصرار .

ويشرح المستشرق الالمانى (بارت) [1] منهج المستشرقين ، وأنهم يخضعون الدراسات الاسلامية للمعيار النقدى، وأنهم يريدون الوصول الى الحقيقة ، فيقـــول : نحن ، معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات فى الدراسات العربية والاسلامية لا نقوم بها قط لكى نبرهن على ضعة العالم العربى الاسلامى ،

---

(1) الدراسات العربية والالمـــانية ص ١٠ .

بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الـذى يمثله الاسلام ومظاهره المختلفة والذى عبر عنه الادب العربى كتابة . ونحن بطبيعة الحال ، لا نأخذ كل شىء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيها النظر ، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخى . ونحن فى هذا نطبق على الاسـلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التى نشتغل بها، المعيار النقدى نفسه الذى نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن . واذا كانت امكانيات معرفتنا محدودة ــ وهل يمكن أن تكون الا كذلك ؟ ــ فاننا نؤكد بضمير مضمئن أننا فى دراستنا لا نسعى الى نوايا جانبية غير صافية ، بل نسعى الى البحث عن الحقيقة الخالصة .

وهكذا اعـترف المستشرق (بارت) بأن امكانيات معـرفة المستشرقين محدودة ، مما قد يسبب وقوع بعض المستشرقين فى مواطن الذلل . والمستشرق (ستورى)[1] يطلب من الشرقيين بأن يتسامحوا مع المستشرقين الذين وقعوا فى الخطأ بدون قصد ، فيقول : ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا ، وان أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل الى تقويمه أن يجرح

---

(۱) الدكتور اسحق موسى الحسينى : علمـاء الشرقيـات فى انجلترا ص ١٤ .

ويقذف ، ثم انا نبحث لغات بعيدة عنا ، ونخوض فى موضوعات فى غاية الدقة ، مستعينين بالأساليب الحديثة ، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح – ان أخفق فى عملية جراحية – حسن نيته ، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الصول الى النتائج دون تعصب •

من عوامل خطأ المستشرقين ، بدون قصد ، عدم توصلهم الى أسرار اللغة العربية التى هى ليست لغة المستشرقين الاصلية ، فهم لم يستطيعوا أن ينفذوا الى كنهها نفوذ العرب اليها • ولذا استعصى على بعض المستشرقين فهم النصوص العربية والوصول الى أعماقها • واذا كنا نعزو تخبط بعض المستشرقين فى الدراسات الأدبية العربية الى عدم فهمهم التام لاسرار البيان العربى ، فان تخبط بعضهم فى الدراسات الاسلامية التى يقومون بها ويتصدون لها قد يعزى الى جهلهم بحقيقة الاسلام وفهمه على حقيقته والنفوذ الى أسراره ، والاحاطة بروحه التى لا يدركها الا العليم •

ومن تمام أسباب العلم واستكماله أن يبحث المستشرق الموضوع من جميع وجوهه وأن يدرسه دراسة اتصال ، وحبذا لو درس البيئة ، ورآها رأى العين ، فان البيئة عامل مهم لا يجوز اغفاله مثلا فى الحديث عن ظهور الاسلام وانتشاره • ولقد كتب بعض المستشرقين عن الاسلام ، ولم يعرفوه الا من خلال

الكتب والمصنفات ، وقد يكون بعض هذه الكتب مما لم يرتفع الى طبقة الاصول الاولى للاسلام ، أو يكون من تلك المصنفات المحشوة بالضلالات والسخافات التى تلصق بالاسلام زورا وسفها ، أو قد تكون تلك المؤلفات من نتاج العقول الاسلامية التى تخلفت عن عصور الانحطاط[1] .

وسأذكر قصة طريفة عن مستشرق وقع فى خطأ بدون قصد ، وقد كنت شاهدا لهذه القصة . فقد كنت أستاذا زائرا فى معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكندا فى العام الجامعى ١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ . وحضرت محاضرة عامة ألقاها أستاذ أمريكى ، يعتبر فى مقدمة المستشرقين المعاصرين ، وله مؤلفات قيمة فى التاريخ الاسلامى ، وألقى عدة محاضرات فى الجامعة الامريكية بالقاهرة . وأصفه بالانصاف والعمق فى الدراسة ، وأنفى عنه أى اتهام قد يوجه اليه .

وقف المستشرق المذكور فى أوائل شهر ديسمبر ١٩٦٣ يلقى محاضرة عن ظهور نظام الخلافة ، ويبدو أنه كان لا يزال متأثرا بمصرع الرئيس الامريكى السابق (جون كيندى) ، فقال المستشرق : « وبعد وفاة الرسول ، تولى أبو بكر الحكم ، وهذا يشبه ما حدث فى الولايات المتحدة الامريكية ، حينما تولى لندون

---

(1) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ١٠ .

جونسون بعد مصرع جون كيندى » • وجرت العادة فى مثل هذه المحاضرات العامة اتاحة الفرصة لكل من يريد التعليق والتعقيب • ولذا انبريت للاستاذ المستشرق لأفند مقالته ، ولأهاجم هذا التشبيه الذى ذهب اليه • فقلت له ، أنه لا يصح مطلقا وضع نبى من الانبياء موضع مقارنة أو تشبيه بأى انسان آخر ، كما لا يجوز تشبيه أبى بكر الصحابى الجليل وأول الخلفاء برئيس أمريكى ، مهما بلغ نفوذه أو سلطانه • كما أن طريقة تولية أبى بكر رئاسة الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام تخالف تماما نظام الحكم الرئاسى الموجود فى الولايات المتحدة الامريكية ، فقد تولى أبو بكر الخلافة بعد بيعة خاصة فى سقيفة بنى ساعده ، ثم بيعة عامة فى المسجد النبوى فى اليوم التالى ، وهاتان البيعتان تحققان ما أمر الاسلام به من شورى وديمقراطية • كما أن أبا بكر لم يكن نائبا عن الرسول فى رئاسة الدولة الاسلامية فى حياته الكريمة • هذا بينما كان (جونسون) نائبا لرئيس الجمهورية (كيندى) ولذا تولى الحكم بعد مصرعه • وقد أفضت فى عرض وجهة نظرى العربية الاسلامية ، المستمدة من واقع التاريخ والحقائق ، وقد أبدى الاستاذ الامريكى المستشرق اعتذاره ، وأوضح حسن نواياه ، وذكر أنه انما كان يريد فقط تقريب الصورة لعقول الامريكيين المستمعين لمحاضراته ، ومعظمهم من غير المتخصصين فى التاريخ الاسلامى ، وأن المستشرق لايزال متأثرا بحادث

مصرع (كيندى) الذى هز مشاعر الامريكيين وأثر فى نفوسهم .

ومن المستشرقين البارزين الذين لم يسلموا من الوقوع فى الخطأ (رينولد ألين نيكولسن ١٨٦٨ — ١٩٤٥) ، وقد تخرج من كلية ترينتى — كمبريدج ، وقد كان جده من كبار علماء العربية مما أثر فى ميله الى الدراسات الشرقية ، وتعلم العـربية على روبرتسون سميث ، والفارسية عن ادوارد براون ، وقد خلف براون فى منصبه بعد وفاته . وقدم (نيـكولسن) الى المكتبة العربية والاسلامية كثيرا من الدراسات القيمة التى تتصف بالجدية والابتكار والعمق والانصاف . أشهرها التاريخ الأدبى للعرب ، وهو تصنيف للادب العربى فى ضوء التاريخ السياسى والعمرانى للعرب والمسلمين ، تشبها بتاريخ الادب الفـارسى لبراون ، ويضيق المقام هنا عن تعداد أبحاث نيكولسن [1] .

ومن الكتب التى وقع فيها (نيكولسن) فى بعض الأخطـاء ، كتابه (الصوفية فى الاسلام) الذى استغرق فى تأليفه عشرين عاما . وقد قام الدكتور أحمد الشرباصى بالـرد على آراء المستشرق فى كتاب بعنوان (التصوف عند المستشرقين) ، وقد عاب على المستشرق ما ذهب اليه من أن الصوفية الاسلامية قد

---

(١) انظر قائمة كاملة لابحاث نيكلسون فى كتاب (المستشرقون) للعقيقى ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

تكونت من تأثيرات خارجية غير اسلامية هي المسيحية والافلاطونية والبوذية ، كما عاب عليه اساءته الى القرآن الكريم ، أو وصفه العبادات الاسلامية بأنها « رسوم ظاهرة » موهما بذلك أنها لا تؤثر فى النفس ، أو عندما يذهب الى أنه « ليس لدى المسلم فكرة ما عن القانون الطبيعى » .

واننا وان كنا نوافق الاستاذ الدكتور أحمد الشرباصى على جميع آرائه ، وعلى تفنيده لأقاويل (نيكولسن) ، فاننا أيضا نشعر بالحيرة ونتساءل : كيف وقع هذا المستشرق فى هذه الأخطاء ؟ رغم جهوده الكثيرة وكتبه العديدة وأبحاثه القيمة ؟ !! وخاصة أن الدكتور الشرباصى نفسه يقول عن المستشرق : « وقد يكون الدكتور نيكلسون أقل من غيره من المستشرقين فى باب الخطأ أو الكيد للاسلام .. وقد عنى نيكلسون بالدراسات الصوفية عناية ملحوظة ، فألف فيها ، وأخرج كثيرا من كتب التصوف المشهورة » [1] .

ومن المستشرقين البارزين الذين يثيرون حيرتنا أيضا ، بل أثاروا حيرة المستشرقين أنفسهم ، المستشرق الألمانى (شبرنجر ١٨١٣ — ١٨٩٣) الذى وضع كتابا ضخما بعنوان (حياة محمد وتعاليمه حسب مصادر لم تستخدم غالبيتها الى الان) ، ظهر فى

---

(١) الدكتور احمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١١ .

ثلاث مجلدات • وقد أعلن شبرنجر أنه كرس نفسه للدراسات الاسيوية ، وقد زار الشرق ، وأقام ١٢ عاما فى الهند ، واطلع على جميع جوانب التاريخ الاسلامى • وقد قام باعداد كتاب (فهرست كتب الشيعة) للطوسى للطبع ، كما قام بطبع كتاب (الاتقان) للسيوطى فى سلسلة المكتبة الهندية ، وعثر على الجزء الاول من كتاب الطبقات لابن سعد فى مكتبة خاصة فى (كاونبور) وعلى أجزاء أخرى منه فى دمشق ، وجلب معه من الشرق أكثر من ألفى مجلد منها ١١٠٠ مخطوط عربى انتقلت ملكيتها فيما بعد الى مكتبة برلين •

وقد عدد المستشرق الالمانى المعاصر (بارت) جهود(شبرنجر) فى مجالات الدراسات الاسلامية ، ثم عبر عن حيرته وتعجبه من كتابه عن محمد، فقال : « وكان المتوقع أن يتمكن شبرنجر بما بين يديه من مصـــادر كثيرة ، من كتابة ســـيرة لمحمد لا تدع مجالا للنقد أو الاخذ ، ولكن السيرة التى ألفها خبيث الظنون فى أكثر من ناحية ولم ترع شروط ومتطلبات التقرير العلمى • فقد ضلله اتجاهه الى النظر الى الاسلام باعتباره وليد روح عصره وحمله على التقليل من شأن شخصية النبى ومن أهمية جهوده التاريخية » •

هذه هى شهادة مستشرق مسيحى ، وهو ألمانى مثل (شبرنجر)، فماذا نقول نحن الشرقيون المسلمون ؟! وبطبيعة الحال ، فان

(شبرنجر) لم يكن حسن النية ، ولم يكن بعيدا عن التعصب ، حينما ألف كتابه عن الرسول عليه الصلاة والسلام • وقد أشرنا اليه ، لنوضح مثالين مختلفين ، مثالا للاساءة بدون قصد ، ومثالا آخر للاساءة بعمد وقصد وسبق اصرار •

هذا نقد مستشرق ، لمستشرق آخر • واليكم نقد آخر وجهه المستشرق (بودلى) الى قرنائه المستشرقين • فقد انتقد كل من تعرض من المستشرقين لكتابه سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال أن جميع السير التى دونها مستشرقون ناقصة ، وقد فشلت فى عرض موضوعها من كل الزوايا ، و قد اكتفى المستشرقون بصورة محدودة منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة • ولذا سافر (بودلى) الى بلاد العرب حتى ينجح فى كتابة سيرة للنبى الكريم • وقد انتقد (بودلى) ذلك الكاتب الاجنبى الذى ألف كتابا عن محمد ، فظهر من خلال ما كتبه أنه لم يغادر « نيوانجلاند » حيث كان يعمل راعى كنيسة !! [1] •

التمس بعض علمائنا العذر لاخطاء المستشرقين فى التحقيق فقالوا : ان الاسفار الادبية الاولى كانت تنسخ نسخا وكان سوق النساخ رائجا ، ذفع بعضهم الى الصنعة التجارية فيه ، فوقع تحريف كثير ، وتشوهت الكتابات ، فما يستطيع المحقق

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ١٠ — ١١ •

اليوم بعد طول عهد الكتابة أن يتميزها ، فاستعصت على بعض المستشرقين كلمات ، كما وقع فى ذيل المعاجم العربية لدوزى .
وكذلك قابلتهم تلك الصعوبة فى الشرح على الطريقة الكلامية ، دون معرفة القصد الذوقى منها ، كشرح كاترمير الاحـداث بالغوغاء . كما واجهتهم تلك الصعوبات أيضا فى المفـردات العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية ، التى كثيرا ما لا تفى بحاجة اللفظة العربية ، وفى قواعد اللغة العربية وأصولها وترجمة بعض النصوص [1] .

---

(٢) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٥٢ .

الفصل الخامس
تقييم جهود المستشرقين في التاريخ الإسلامي

صفات ومزايا المستشرقين :

الحق أن مناهج المستشرقين فى البحث هى مناهج تتميز بالجد، وبالدأب على البحث ، والتعمق ، والتحليل ، والاستقراء ، والاستنتاج ، والوصول الى الحكم العام بعد عرض طائفة من الفرديات التى تتشابه فى مجموعة من الخصائص تجعلها صالحة لان تندرج تحت حكم واحد • وبقدر ما فى طرائق البحث والاستنتاج من سلامة وحياد تكون الاحكام العامة دائما سليمة محايدة بعيدة عن الاجحاف والاغراض •

ولا شك أيضا أننا مدينون لكثير من المستشرقين بطائفة كثيرة من المصنفات التى أسهمت بنصيب كبير فى ثروة الفكر ، وخاصة بعد ترجمتها الى العربية • فقد أوضحت الكثير من الحقائق العلمية ، وأضافت الى مكتبتنا العربية العديد من الأبحاث • وقد يكون

للعقلية الغربية المنظمة القادرة على البحث والتحليل والتتبع أثر فى ذلك الطابع الذى تتسم به دراساتهم وأبحاثهم [١] .

ومن محاسن المستشرقين ادخال المنهج العلمى على دراساتنا الاسلامية والعربية . وهذا المنهج قائم على الاحاطة والموازنة والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة ، وقد طبقه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقا صحيحا . وقد ساعدهم على تطبيق منهجهم العلمى مميزات خاصة ، منها اتقانهم بأمهات اللغات سامية كانت أو آرية ، وتخصص الواحد منهم بلغة أو دين أو علم أو أدب أو فن أو سلالة أو عصر أو أديب . وبما أنهم دخلاء على التراث الشرقى فقداصطنعوا التمحيص والدقةفيه، لعلمهم بأن الاخطاء الفـاحشة والتحريف والتضليل تنـال من أقدارهم فى أعين الشرقيين وتصرف الانظـار عنهـم . وكان المستشرقون من دول متعددة ، يقرءون ما يكتب فى موضـوعهم بسائر اللغات ، ويصحح بعضهم للبعض الآخر . ومن مميزات المستشرقين أيضا جلدهم على العمل ، وربما ينقضى عمر أحدهم فى تحقيق مخطوط أو تصنيف كتاب أو موسوعة دون كلل أو ملل [٢] .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بـين الانصاف والجحود ص ٦ .

(٢) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٣ ــ ١١٤٤ .

يشيد المرحوم الاستاذ الدكتور زكى محمد حسن بجهـود المستشرقين ، فيقول : «الملاحظ بوجه عام أن ماكتبه المستشرقون من الدراسات فى بعض عصور التاريخ الاسـلامى أو مسائله الجزئية أعمق من كتبهم الشاملة ، واذا كان للمراجع العربية والفارسية القديمة المقام الاول والاساسى فى دراسة التاريخ الاسلامى ، فمن الانصاف أن نعترف بأننا لم نحسن الافادة من تلك المراجع الاصيلة ، حتى اتصلنا بالغرب ، واستطاع الرعيل الاول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا عن المستشرقين كثيرا من أساليب البحث العلمى الدقيق • وحسبنا مثـلا أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا عظمة ابن خلدون وما فى مقدمته من نظريات اجتماعية سبق بهـا العلماء الذين ينسب اليهم الغربيون وضع الاسس الاولى فى علم الاجتماع •

« ولا ريب فى أن بعض المستشرقين لا تلين لهم قنـاة اللغة العربية بحيث يصبحون فى مأمن من سوء الفهم ومجانبة التفسير الصحيح ، وما من شك فى أن بعض المستشرقين يعميهم التعصب الدينى أو القومى عن الحقائق ، أو يدفعهم الى قلبها ، ولكن هذا لا يقلل من فضل المستشرقين فى العناية بتاريخ حضارتنا ، وفى دفعنا الى العناية بها ، فى أسلوب علمى سليم ، نستطيع بواسطته أن نكمل ما فى دراستهم من نقص ، أو نقوم ما فيها من عيوب » •

الاهتمام بالتراث الاسلامى العربى :

لقد أعان رجال الاستشراق على أصالة بحوثهم أنهم وقع لهم من كنوز التراث الشرقى والعربى وذخائر أفكاره ما لم يقع لاهله وأصحابه • فقد جاء حين على المخطوطات العربية كانت مجهولة القدر عند أصحابها الذين هم أولى الناس بها ، وأحقهم بصيانتها وحفظها ، فانتقلت الى خزائن الغربيين ــ فيما انتقل اليهم من التراث الشرقى والعربى ــ ومن هنا أكبوا عليها ، وعكفوا على دراستها ، وأطالوا البحث فيها ، حتى استقام لهم من ذلك دراسات سبقونا اليها ، وكنا نحن أحق بهذا السبق [1] •

والتراث العربى جزء من التراث الانسانى ، ولعله أكثر أجزائه اتساعا وتعقيدا وغموضا ، فى أصوله وتأثره وتفاعله وتطوره وأثره ، ذلك لما رافقه من عصبيات قبائل وأنساب وقرشيين وأنصار ومهاجرين ، ومن منازعات على الخلافة بين الامويين والهاشميين ، وانقسم المسلمون الى سنيين وشيعة وخوارج ، ومن زندقات شعوبية • كل ذلك ساعد على طمس بعض معالم التراث العربى [2] •

ولذا فقد استفاد التراث العربى حين طبق المستشرقون منهجهم العلمى على هذا التراث ، فقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم

---

(1) عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ٧ •
(2) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٥ •

من آثار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء ، ولذا كانت آراؤهم علمية خالصة ، وان لم ترض بعض المسلمين الذين لا يزالون متأثرين بتلك العصبيات القديمة .

ورغم أن الدكتور تمام حسان قد انتقد بعض آراء وأفكار (ديلاسى أوليرى) فى مقدمته لترجمته لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ، كما رأينا فى الفصل السـابق من كتابنا هذا ، فان الدكتور تمام فى حكمه على الفرق الاسلامية كان بعيدا عن التعصب لهذه الفرق أو لبعضها ، فيقول [١] : ولكون مؤلف الكتاب مستشرقا ينتمى الى بيئة ، لا هى بالاسلامية ولا العربية، يثير فى نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه فى الفـرق الاسلامية المختلفة . بل انه يثير انتباهنا كذلك حين يتكلم فى أعلام الفكرى العربى بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الاعلام ، ولعل ذلك من حسنات هذا الكتاب أكثر مما هو من مساوئه ، لانه يعرض هذه الفرق وهؤلاء الاعلام من زاوية لا تتفق كثيرا لاتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الاعلام ، ولان المسلم هنا ينظر بعين العطف الى أبناء مذهبه فى الدين ، وبعين الاشفاق الى أبنـاء المذاهب الاخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند ارادة البحث العلمى الذى لا يعرف العطف والاشفاق ، أن يتخذ لنفسه موقفا خلوا من أى منهما .

---

(١) انظر مقدمة كتاب (الفكر العربى) ص ١٤ .

المطابع والمجلات والمؤتمرات :

كان المستشرقون أول من أنشأ المطابع الشرقية فى بلـدان الغرب ، والشرقين الاوسط والاقصى ، وشمالى افريقية . وقد استوعبت مطبعة ليدن وحدها حروف عشرين لغة شرقية . ثم تعددت مطابع الجامعات والمكتبات والجمعيات والمراكز الثقافية والعلمية والأثرية ، ونشرت الامهات من علومنا وآدابنا وفنوننا، محققة مترجمة مصنفا فيها ، على أروع ما يكون النشر دقـة علمية واتقان طباعة ورونق حروف . وقد ساعد على نشر كتبهم تحمل جمعياتهم ومعاهدهم ومجلاتهم وريع مؤسساتهم نفقات طبعهـا[1] .

لقد كانت جهود المستشرقين المؤرخين فى نقل كتب التـاريخ العربى الاسلامى ، أو تحقيقها ونشرها نشرا علميا مع الفهارس الدقيقة ، مما لا ينكره الا جاحد . وهذه الكتب التى حققوها ونشروها تدل على جهد عظيم ، وصبر على العمل ، ودقة فى الفهرسة ، اللهم الا بعض مآخذ تعود الى عدم اتقانهم لقراءة النص ، تبعا لعدم اتقانهم اللسان العربى ، وذلك فى حالات قليلة ومستدركة ، ولكنها لا تنقص بحال من قيمة عملهم الجليل فى هذا الميدان[2] .

أما المجلات والدوريات الشرقية فهى تزيد على ثلاثمائة مجلة

(١) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٦ .
(٢) عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠ .

متنوعة خاصة بالاستشراق ، وهي منشورة بمختلف اللغات ، وبعضها بثلاث لغات ، وتتناول أبحاثها الشرق فى لغاته وأديانه وعلومه وآدابه وفنونه ، قديمها وحديثها ، وتأثرها وأثرها ومقـــارنتها بغيرها ، على الاســلوب العلمى الذى عرفنـــاه للمستشرقين ، وتفتح صفحاتها للعلماء الشرقيين ، ولا تكتفى بالمباحث بل تتجاوزها الى نشر المخطوطات والوثائق ، ومختصرات لمحاضرات الأساتذة ومصادر الاستشراق ، وتقديم الكتب فى الشرق والغرب ، فلا يصدر كتاب حتى يبادر الناقد الى نقده نقدا دقيقا نزيها . ولكل مجلة نقاد متخصصون بالموضوعات والمؤلفين والعصور والدول [1] .

والمستشرقون الالمان منظمون فى جمعية تضمهم هى الجمعية الشرقية الالمانية التى تقوم منذ ١٢٠ سنة والتى تجمع المستشرقين الالمان . ولهذه الجمعية منذ ١٩٦١ معهـد ألمانى للدراسات الشرقية فى بيروت مهمته القيام بموضوعات بحث خاصة وعلى تدعيم الصلة بين الاستشراق وبين البلاد العربية ، ومبلاحظة عمليات الطبع التى تجريها الجمعية فى المطابع العربية . وتظهر مجلة الجمعية الشرقية الالمانية بانتظام حاملة المقالات العلمية المتخصصة ونقد الكتب فى ميادين الاستشراق جميعا ، وبلغ عدد ما صدر من مجلداتها حتى الان ١١٥ عددا . وهنـــاك

---

(١) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٨ .

أيضا ، عدا المجلة ، مسلسلات نشرية تمولها الجمعية وترعاها ، وهى « دراسات فى علم المشرق » و « المكتبة الاسلامية » • ويجد ممثلو الدراسات العربية والاسلامية مجالا آخر لنشر مقالاتهم ودراساتهم الصغيرة فى مجلتين أخرتين هما (مجلة الاسلام) ومجلة (عالم الاسلام) • بينما تختص (جريدة المدونات الاستشراقية) بمناقشة ونقد الكتب المتصلة بالاستشراق • أما مجلة (أوريئس) التى ظهرت سنة ١٩٤٨ فهى تنطق باسم الجمعية الدولية لبحوث الشرق ، ولا تعتبر مجلة ألمانية الا بتحفظ • وهناك مجلة (الشرق) التى تختص بأحوال الشرق المعاصر وخاصة أحواله الاقتصادية والتى تخرج عن « اتحاد الشرق الأدنى والاوسط » فى هامبورج[1] •

وجدير بنا أن نذكر أقدم مجلةأصدرها المستشرقون ، واهتمت بالدراسات الاسلامية والعربية ، وهى المجلة الاسيوية التى يرجع الفضل فى صدورها الى البارون الفرنسى دى ساس (١٧٥٨ — ١٨٣٨)[2] ، الذى يعتبره كثير من المستشرقين امامهم ورائدهم ، وقد عاصر الثورة الفرنسية ونابليون وحملته على مصر • وقد أنشأ فى سنة ١٨٢٢ (الجمعية الاسيوية) وأنشأ مجلتها الشهيرة ، وأصبح رئيسا لتحريرها ست عشرة سنة • وقد اختلف العلماء من أوروبا قاطبة عليه ، وأخذوا عنه

---

(١) بارت : الدراسات العربية والالمانية ص ١٠٥ — ١٠٦ •
(٢) وهو غير (ديلاسى أوليرى) المستشرق البريطانى •

ونظموا الاستشراق فى بلدانهم على نمطه بفضله [1] .

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣ — ١٩٦٤) ٢٦ مؤتمرا ، ضم الواحد منهم مئات العلماء من أعلام المستشرقين العرب والمسلمين والشرقيين ، أسهموا فيما بينهم فى أقسامه الاربعة عشر ، عن آسيا وافريقية ، وتناولوها بالمحاضرات والابحاث والنظريات والمقترحات . ثم نشروها فى مجلدات للاهتداء به كنظم ومناهج وسائل ، ثم أصبحت مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية ، أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين [2] .

ومن أشهر هذه المؤتمرات ، مؤتمر الثقافة الاسلامية الذى نظمته جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكى . وعلق الأستاذ محمد خلف الله أحمد[3] الذى حضر هذا المؤتمر على أعماله فقال : تبين لى ، كما تبين لزملائى ، أن الأمم الاسلامية تتفق كلها فى الاعتزاز بقواعد دينها وتراث حضارتها ، ولكنها تفترق فى موقفها من بعض المعضلات التى يثيرها الاجتماع ونظم الحياة فى الدولة الحديثة ، وتفترق كذلك فى أساليب فهمها لأسرار التشريع ودوراته مع المصالح العامة .

---

(١) المستشرقون جـ ١ ص ١٨٠ .
(٢) المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٨ .
(٣) الاسلام والحضارة ص ٢١ .

والظاهرة أن عناية أمريكا وأوروبا بالاسلام قد أخذت فى السنوات الأخيرة شكلا جديدا نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن الى فريقين ، أحدهما دينى ، والآخر لا دينى ، وأن واجب أهل الديانات السماوية أن يقفوا متكاتفين فى وجه الالحاد[1] .

دائرة المعـارف الاسـلامية :

تمثل دائرة المعارف الاسلامية عملا مشتركا واسع النطاق ، اشترك فيه عديد من المستشرقين ، فهى اذ تمثل التعاون العالمى ، وقد استغرق اصدارها عدة سنوات ، وبذل فيها كثير من الجهود العلمية . وقد اشترك فى التخطيط لها اشتراكا حاسما المستشرق (سنوك هور جرونيه) ، وقام على التنفيذ خلفه على كرسى ليدن المستشرق (أرنت يان فينسينك ١٨٨٢ ـ ١٩٣٩) ، واشترك لفيف من المستشرقين فى اعداد هذه الدائرة . وساهم الألمان فيها مساهمة فعالة ، فقد اشترك فى نشر الجزء الاول من الدائرة ، الذى تم وظهر عام ١٩١٣ ، من الجانب الألمانى أرتوشاده (١٨٨٣ ـ ١٩٥٢) وريشارد هرتمن (١٨٨١ ـ ١٩٦٥) . وفى الجزء الثانى الذى ظهر عام ١٩٢٧ هانس باور (١٨٧٨ ـ ١٩٣٧) ، واشترك (فيللى هيفننج) فى مسئولية نشر الجزءالثالث والجزء الرابع والمجلد التكميلى ،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ .

تلك المجلدات التى جرى العمل فيها فى وقت واحد وخرجت فى الأعوام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالى •

ظهرت « دائرة المعارف الاسلامية » فى المرة الأولى فى ثلاث طبعات ، طبعة ألمـانية ، وطبعة انجليزية ، وطبعة فرنسية • وكانت المقالات فى غالبيتها بقلم المتخصصين فى موضوعاتها ، وكانت تترجم من لغتها الاصلية الى اللغتين الأخريين • وقد بدأ بعد الحرب العالمية الثانية الاعداد لطبعة جديدة من دائرة المعـارف يشترك فيها أيضـا لفيف من العلمـاء الألمـان المتخصصين ، وبدأت تظهر منذ عام ١٩٥٤ ، ولكن فى طبعتين فقط ، انجليزية وفرنسية[1] •

واهتم المستشرق البريطانى المعاصر المعروف السير هاملتون جيب (المولود عام ١٨٩٥) باخراج دائرة المعارف الاسلامية الموجزة باللغة الانجليزية ، فصدرت فى لندن سنة ١٩٥٣ ، واشترك مع (جيب) المستشرق الهولندى (كرامرز) • ولا نرى بأسا فى الحديث عن (جيب) و (كرامرز) فى سطور قليلة •

أما (جيب) فهو من مواليد الاسكندرية فى مصر (١٨٩٥) ، وهو خليفة مرجوليوث فى أكسفورد ، وعضو المجمع العلمى العربى فى دمشق ، والمجمع اللغوى فى القاهرة عند تأسيسه ، وهو يكتب العربية كأدبائها ، وقد درس على المستشرق الكبير

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٣٨ •

(توماس أرنولد) ، ثم أصبح أستاذ للغة العربية فى جامعة لندن (١٩٣٠ — ١٩٣٧) وفى أكسفورد (١٩٣٧ — ١٩٥٥) وفى هارفارد منــذ ١٩٥٥ ، ومديرا لمركز دراســات الشرق الأوسط (١٩٦٢) وله كثير من المؤلفات والابحاث القيمة[٢] .

أما (كرامرز) فقد ولد فى ســنة ١٨٩١ وأصبح ترجمان السفارة الهولندية فى الآستانة (١٩١٥ — ١٩٢٢) ، ثم أنتدب للمعاونة على نشر مطبوعات الأمير يوسف كمال فى مجموعته (آثار أفريقية ومصر) سنة ١٩٢٥ . وعين أستاذا للتركية والفارسية فى جامعة ليدن ، ثم خلف (فنسنك) على كرسى العربية فيها (١٩٢٩) ، وله كثير من المؤلفات القيمة يضيق المقام عن ذكرها[٣] . وله مجموعة مقالات فى الجزئين الثانى والثالث من دائرة المعارف الاسلامية .

يمتدح الأســتاذ كرد على[١] جهود المستشرقين فى دائرة المعارف الاسلامية ويرى ألا يعيبها الا الأبحاث التى ساهم بها الأب (لامانس) ، فيقول : من الكتب المهمة التى نشرت فى مدينة (ليدن) الهولندية بلغات العلم الثلاث : الفرنسية ،

---

(٢) أنظر قائمة بمؤلفات (جيب) فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ص ٥٥٣ — ٥٥٤ .

(٣) أنظر قائمة بمؤلفات (كرامرز) فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ص ٦٧٠ — ٦٧١ .

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٣١ .

والألمــانية ، والانجليزية ، كتاب « دائرة المعارف الاسلامية » وتعد هذه الدائرة ، بما ضمنت لها من مؤازرة أعاظم الباحثين من علماء المشرقيات ، من أجمع ما كتب على الاسلام وأصول أهــله وبلدانه وتقويمهــا . وهو عمل جليــل ، لم يخل — ويا للأسف — وجهه الجميل من تشويه قليل أتاه ذلك الذى ينظر الى الاسلام أبدا بعيون البغيض ، وأعنى به (لامانس) ، فأساء الى الحقيقة فى مقالاته ، ظانا أن هذه الدائرة أيضا بوق دعاية مذهبية ، وأن على الداعية أن يحتال لبث دعوته ، لوخان الواجب عليه فى عمل آخر .

هل نهمل أبحاث المستشرقين فى المستقبل :

قام المستشرق الألمــانى المعاصر (بارت)[٢] بتقييم جهود المستشرقين فى المــاضى ، ثم حاول أن يرسم صورة لمستقبل الاستشراق ، فقال : اذا نظر الانسان نظرة الى الوراء الى النشريات الكثيرة التى صدرت فى الحقبة الأخيرة فى ميدان الدراسات الاســلامية والعربية ، راعه ضخامة ما أنجز من عمل . ويحق للانسان أن يفرح بما تم ، ويخطىء الانسان ان أخذه الغرور والزهو ، والأحرى به أن يتواضع ويفكر فى حدود المعرفة . فكل دراسة فى هذا الميدان هى فى حقيقتها جزء ضئيل

---

(٢) الدراسات العربية والالمــانية ص ١٠٧ .

فى كل كبير ، وينبغى على العالم أن يعيد النظر فى موقفه من حين لآخر . ولا شك أن البحث العلمى الدقيق العميق وحده هو الذى يأخذ بيدنا الى أمام . ونحن معشر المستشرقين نتمتع بميزة الجلوس فى مكان ذى نافذة نطل منه على الشرق الساحر الجذاب . والآخرون على حق عندما ينتظرون منا أن نعرفهم من حين لآخر بالعالم الذى نحيط به علما .

وتساءل الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه القيم (المستشرقون)[٣] عن مدى حاجتنا الى جهود المستشرقين ، ثم قال : أما القول فى تراثنا بأننا أهله وأصحابه ولا يجوز لنا بعد اليوم أن نتخلى عنه لسوانا من الأجانب الغرباء ، فقول مردود لانه يحرمنا من حق دراسة التراث الانسانى ، ولأولئك الأجانب الغرباء نصيب فيه . ويسقط ، فى الوقت نفسه ، عن تراثنا صفة الانسانية فى تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها من اليونان والفرس والرومان الى أوروبا وافريقية وآسيا حتى الشرق الأقصى . ولولا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتدينا الى كل عظمة أسلافنا وحققنا تواريخ أولى دولنا ، وما دامت ثقافتنا عالمية ومن سماء الشرق انبثقت الأديان الثلاثة المنزلة ، حق لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم ، وتقصيهم صلات بلدانهم بالشرق وبحالته العسكرية :

---

(٣) جـ ٣ ص ١١٦٣ .

والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحديد تاريخهم منه فى ضوئها .

ويرى المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ضرورة الاستفادة من أبحاث المستشرقين ، فيقول : « لسنا نظن أن باحثا منصفا يستطيع أن ينكر ضرورة الالمام بكل ما يكتب المستشرقون ، لأن أكثر ما يكتبونه دقيق ومنظم ، وفيه كثير من مزايا البحث العلمى الصحيح . أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركها ونحذر شرها » .

هذا بينما يرى الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، مدير معهد البحوث والدراسات العربية (التابع لجامعة الدول العربية) ضرورة اعتماد الباحثين على أنفسهم ، والكف عن تقليد المستشرقين ، فيقول : من واجب المسلمين أن يدرسوا ويفهموا موقف الغرب من الاسلام ، وأن يأخذ علماؤهم زمام الأمور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التى كنا نقف فيها عن المستشرقين موقف المقلد ، وقد تهيأت لنا سبيل البحث والتحقيق ، التى كانت مسالكها وعرة علينا قبل النهضة العربية . وطبائع الأشياء تقضى أن يكون علماء المسلمين أعرف بأسرار دينهم ومراميه ، وأقدر على تفسيره وتطبيقه ، وأعلم بما يحقق رسالته فى حضارة الشرق والغرب .

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٢٣ .

ورغم تأييدنا لرأى أستاذنا الكبير الفاضل محمد خلف الله أحمد ، الا أننـا لن نسـتطيع تجاهل أبحـاث المستشرقين أو اهمالها • فلا زالت الدول العربية والاسلامية توفد أبناءها لدراسـة المـاجستير والدكتوراه فى الدراسـات العـربية والاسـلامية ، ولا زالت كتب المستشرقين تغزو الأسـواق العربية ، بلغاتها الأصلية أو ترجماتهـا العربية ، وهى كتب أنيقة فى طباعها ، جميلة فى تبويبها وعرضها • ولا زالت المجلات والدوريات الأجنبية تصل الى جامعاتنا ومعاهدنا العربية • ولا تزال هناك بعض الموضوعات ، وان كانت قليلة ، لا نجد فى كتبنا العربية ما يسد الفراغات الموجودة فعلا ، كما أن بعض كتبنا العربية فى هذه الموضوعات لا تتميز بالعمق أوالجدية التى تتصف بها غالبا كتب المستشرقين •

ومهما كان الرأى ، فقد تضاءلت حركة الاستشراق ، كما أوضحنا فى الفصل الثانى عند حديثنا عن مراحل الاستشراق ، واتجه معظم المستشرقين نحو الدراسات الافريقية والآسيوية ، بدلا من الدراسات العربية والاسلامية ، نتيجة ظهور علمـاء وباحثين عرب ومسلمين أنتجوا كثيرا من الأبحاث والدراسات المستفيضة القيمة التى جعلتنا فى غير حاجة الى بضاعة فكرية مستوردة • كما أن انتهاء الاستعمار من الشرق العربى ، جعل الاستشراق يتجه اتجاها علميـا بحتا بعيـدا عن الدوافع

الاستعمارية القديمة ، كما أن العرب والمسلمين قد أصبحوا من الثقـافة والوعى ما يجعلهم يميزون بين الغث والسمين ، والطيـب والخبيث ، ويفطنـون الى ألاعيب المسـتشرقين أو مكائدهم ، فلم يعد هناك مجال لهـا بعد ، ولكن ، ورغم ذلك ، فان أبحاث المستشرقين لا تزال تكون جانبا كبيرا من مكتبتنا العربية الاسلامية ، وان (رفوف) مكتباتنا العامة تزخر بالآلاف من أبحاثهم ، التى أصبحت جزءا من تاريخنا الفكرى ، ومرحلة من حياتنا الثقافية ، لا يمكننا الغاءها بجرة قلم ، أو بكلمات حماسية ، ولكن من مصلحتنا أن تظل هذه الأبحاث موجودة وقائمة الى جانب أبحاث العلماء والمؤرخين والمفكرين العرب ، ثم نقول لهؤلاء وهؤلاء ، انما البقـاء للأصـلح .

رقم الايداع بدار الكتب
٤٧٠٢ / ١٩٧٠

مطابع الأهرام التجارية

الثمن ٥ قروش

مطابع الأهرام التجارية